محمود ياسين

تبــادل الهُــــزء

بين رجل وماضيه

رواية

محمود ياسين من مواليد ١٩٧٢ بقرية «رجاح» - إب. سنة ثالثة فلسفة جامعة صنعاء، صحفي بمجلة «نوافذ» من العام ١٩٩٨ وحتى ٢٠٠٣، وباحث بالمركز اليمني للدراسات الاستراتيجية في الفترة ذاتها. كاتب متفرغ لصحف: «الصحوة»، «الثوري»، «الشورى»، و«الثقافية». أسّس وأصدر مجلة «صيف» منذ العام ٢٠٠٩. له كتاب «مدن لا يعرفها العابرون». موظف في وكالة الأنباء اليمنية (سبأ).

١.

لم يعد العزّي يحتمل الحياة في تداعياته الذهنية.

الضغينة غالباً هي ما يخرج به العزّي من «مقايل»[١] صنعاء. يحدث له أن يضطغن بسبب ما يطلق عليه بينه وبين نفسه «عنف التواصل». الضغينة المبهمة تلك تجعله مستاء بقية المساء، الاستياء الذي يؤمّن له القدر الكافي من الهزء؛ ذلك أن مساءات صحفي وحيد في صنعاء ستكون مروعة للغاية بدونما هزء وادعاء التبول على رأس العالم. قام بتدوين رقم تلفون المرأة ليتصل بها فيما بعد وقد يتمكن من إقناعها باستضافته الليلة. اكتشف أنه كتب الرقم على رأس البيان التضامني مع المطالبين بمحاكمة عادلة للفكر المتطرف الذي يمثله قاتل جار الله عمر[٢]. وجد أن هذا يسيء لروح مثقف اشتراكي بحجم جار الله، وكان

(١) مجالس تعاطي القات في اليمن.

(٢) سياسي يمني، أحد مؤسسي الحزب الاشتراكي اليمني، وأصبح أمينه العام المساعد. اغتيل في ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٢.

ساعتها قد غادر مقيل اللقاء التضامني الذي عقد في بيت الشهيد برفقة زميله الصحفي، وجلس على المقعد الأمامي في سيارة هذا الصحفي الذي يتسلم راتبه بالدولار من وكالة أنباء شهيرة، إضافة لحيازته عدداً كبيراً من الصديقات، وقدرته على التصرف كرجلٍ كريه متباهٍ لا يكف عن الإيماء كناجح وعالمي، وكأنه يعتمد مستوى لمصافحة زملائه الصحفيين وفقاً لأسعار الصرف.

وكان يجدر بنا الإشارة إلى كونه من أعطى العزّي رقم تلفون المرأة تلك عقب حديثنا عن حيازته لعدد كبير من الصديقات، وخطر للعزّي أنه وباعتباره كريهاً فمن المؤكد أنه تخلى له عن البشعة في مجموعته الكبيرة، وأن هذا التصرف قد يكون طريقة للتخلص منها ووضعها على ظهر العزّي. وإذن فنحن إزاء واحدة من أكثر طرق العزّي تواجداً في تفخيخ فرص الملذات، وهذا النوع من الشتات بين نزعاته والتزاماته الأخلاقية تجاه المعنى المثالي الذي يمثله جار الله عمر، المتواجد في الورقة، والذي ترك فراغاً معقولاً في الأعلى لتمارس فيه الحياة واقعيتها. ذلك النوع من الواقعية ينبغي لمثقف متوتر مثل العزّي التورط في ألاعيبها اليومية وكأنه قد علق في فخ التأكيدات المتعذرة لمدى

التزامه بكل الذي كان قد دافع عنه بحماسة أثناء المقيل، تلك الحماسة والمصطلحات التي تروق الاشتراكيين في لقاء يريد العدالة لأمينهم العام المساعد.

لم يسمع شيئاً من نصائح زميله الكريه المحظوظ، وهي -فيما اعتقد العزّي لاحقاً- مباهاة رجل كريه لا أحد يملك تفسيراً لحيازته عدداً كبيراً من الصديقات. قطع رقم سيئة السمعة من البيان واتصل، فأخبرته المرأة أنها تخشى أن يعلم زوجها بالأمر. ووجد نفسه هكذا يلقي مجموعة نصائح عائلية نزيهة تماماً، مكتشفاً التجلي المريع لموهبته في إنجاز تواصل محترم مع كل سيئة سمعة صادفها في حياته، إذ لا يدري إلا وقد أصبح بينه وبينها احترام متبادل.

على الدوام يعزي نفسه بقدرته على منحهن الشعور بشخصية سيدة محترمة ضمن منهج تعلمه واعتمده في تفسير خيباته. فيما بعد يشعر تجاههن بضغينة ما، ليس كرجل تعرض لعملية ابتزاز، ولكنها ضغينة مَن كان بوسع الآخر تفهُّم روحه العظيمة وحرمانه والقيام بمبادرة كريمة، بدلاً من اهتبال هذا الاحترام الفادح وإمضاء بعض الوقت على حسابه، إذ ما الذي ستفعله امرأة سيئة السمعة بهذا الاحترام الذي قدمه

رجل متورط في أنسنة أشياء كثيرة ضمن رضوخه للوعي المبكر بالخذلان.

وإذن سيبدأ مجدداً في رثاء الجهد الإنساني للوصول إلى صيغة متعذرة مع عالم مغلوط، عالم يحدث في صنعاء مع تمتع هذا العالم القائم هنا بمستوى متقدم من تعذُّر أن يعيشه المرء بدون أزمة، مع التأكد من أن هذه الأزمة ليست بجلاء ومهنية الأزمة الوجودية المتبادلة في الكتب والتي تحدث لمثقف في لندن ربما، حيث يحتسي هذا المثقف البيرة الرخيصة ويذهب إلى الضاحية بحثاً عن عاهرة من ماضيه يمكنه البوح لها بنيته الكاذبة في الانتحار على سبيل إذكاء روحها الشبقة المتعاطفة. لكن أزمة في صنعاء تعني ما بعد نشوة القات والمرور إلى جوار من تبقى من رجال القبائل ورثاء الذات والعالم بضعف وجودي جلي أثناء احتساء شاي بالحليب. لكن ماذا لو لم أظهر شخصيتي المحترمة للعاهرة؟! أكانت الأمور لتكون أفضل؟!

الغريب أن العزّي يصدق مخاوفهن ويتفهم على الدوام حاجتهن للاحترام. ولعل أكثر ما يحتاجه الإنسان في حياته يتجاوز هذا السعي المرضي للتمتع بكامل النزاهة وأنسنة الأشياء، وأنه سيكون من المؤسف

حقاً لو شعرت واحدة من سيئات السمعة باحترام فحولة الرجل أو لنقل احترام عماه الشبقي أكثر من تقديرهن لإنسانية العزّي، وأنهن بحاجة لبقاء عالمهن كما هو بلا تفهم، حيث يمكنهن فهم هذا العالم وعيشه بدون نبالة العزّي الملتبسة، إذ غالباً ما يطمئن الإنسان لتكرار تفاصيل حياته ولما يحدث ببساطة، وكأن العالم هنا في صنعاء هذه لم يعد بحاجة لتواجد العزّي الذي يتجول كتداعيات ذهنية محضة.

قد نفهم من هنا بداية بحث العزّي عن وجود ملموس غير معقد، ويمكن لقريته تقديم هذا الوجود بلا مقولات منتزعة من الكتب. وقد ينسى مع مرور الوقت ملامح مرضى الفن الشهيرين وهم يتجولون في ذهنه مأزقاً بالغ الجاذبية. وما إن فتح باب غرفته وحدق في الأغلفة المبعثرة للروايات والدواوين حتى امتعض للغاية من تفاصيل وأشياء وأعقاب سجائر غرفة المثقف، واحتقر حتى الفوضى وهي فيما يذكر لم تتسبب يوماً في إلهامه نصاً مدهشاً بقدر ما تسببت في احتقار المؤجر لغرفته ولنمط عيشه لدرجة أن صرخ في وجهه: «أيش من صحافة أيش من قذارة؟!!». حدث هذا في مساء سابق لهذا المساء، وفي اليوم الأول في هذه الغرفة، حينما ألقى بأمتعته الرخيصة هنا. ولعل رخص أمتعته هو

ما دفع المؤجر لاحتقاره، وحينما ألقى بالكتب بطريقة تضمن تمتعه بالشخصية الفوضوية الفنية. ويمكن هنا أن ندرك كيف شرع العزّي في كتابة مذكراته التي سيحاول فيما بعد تحويلها إلى رواية ينجزها في قريته على أساس من احتفاظه بالحق في تحويل التداعيات الذهنية إلى تواجد ملموس. يبدأ الآن في مشروع مذكرات اقترح لها تفاصيل تلك الأمسية كصفحات أولى. كيف يرضى الناس بحياة كهذه: باصات، وعودة خائبة؟! مساءات اليمني محض هول.

٢.

ذات مرة استأجرتُ غرفة طويلة وبلاطها مزخرف لأجل ذوي الحظوظ العاثرة، دوائر ومربعات تتوالى بلا هوادة، في تأكيد أن هذا سيتكرر تماماً. في الغرفة تليفون لا يخص أحداً. وأنا وحيد ومتضرر من رائحة المستأجر السابق: رائحة مكبوت تجاوز الأربعين ومضى. ربما تتصل إحداهن ولو خطأً يحلم به الملقون على بلاط لم تطأه امرأة! هكذا من عتمة ما بعد القات والزوايا الطارئة قد يحدث خطأٌ أنثوي برعاية ميتافيزيقية! وبدلاً من أن تتصل إحداهن، ضرط أحدهم في الحمام المجاور. أظنه جاري الذي يشتغل عامل طلاء باليومية. ما أسوأ ضرط البؤساء لبعضهم! آلمني ذلك كثيراً وشعرت بالإذلال وفداحة المصير الإنساني. لقد كرهته، كرهت الرجل وروايات ألبير قصيري وهي تسجل، ضمن كشوفات قاطنيها المتزاحمين في قاهرة ماضي قصيري، تلك الجموع الملتهمة بشدة. وأنا الذي أسفت لأجلهم بإنسانية المراقب الأمين خارج أسوار تلك الروايات. أما أن أصبح واحداً منهم فذلك ما لم يخطر لي إطلاقاً. ولم يعد الأمر مسألة ثقافة ورثاء للمصير الإنساني. لقد حولته فعلة عامل الطلاء إلى عدوان وتهديد أسمعني قهقهات نساء

قاسيات في الجانب الآخر من التليفون. ضحكن مني، فأمسيت ملتهماً أنا الآخر. وتأكد لي أن قصيري كان يقصدني أنا بالهزء. وكنت، أنا، هدفاً كسولاً متحاذقاً يعيش على رثاء حياة تتألم «ويكتب روايات دون مراعاة البتة. وفكرت في أنني كنت لأتغابى عن التقاط صورة لي كهذه»، على ألا تعرض عليَّ فيما بعد صورة مثقف وحيد يبدو هازئاً، بلا منفضة سجائره. مثقف طليعي استأجر للتو غرفة، في وضعية جانبية أثناء إصغائه لما ينبغي أن يكون شوبارت. غير أني كنت قد رأيت الصورة قبل أن تلتقطني بسنوات. كانت صوري المتخيلة التي أحتفظ بها تدور في موانئ ومطارات لا تفارقني. ياقة البالطو الأسود تفصح عن ألم عظيم يجوب الموانئ. ثم الصورة التي التقطت لي في الغرفة إلى جوار موسيقى شوربات، والتي احتفظت بها من قبيل التواضع والاحتياط، إذ لا شيء مقلقاً في أن يشاهدك العالم بفانيللة بيضاء نصف كُم، و«مَعْوَز مقلّم»(٣)، تصغي لما ينبغي أن يكون شوربات. أما أن أحدق هكذا، بعينين مفتوحتين، إلى الأعلى أكثر، فذلك يعني أنني ربما قرأت بعض الروايات قبل هذه اللحظة. غير أن الأكيد أنني سمعت حقيقة جوهرية لا

---

(٣) المَعْوَز: من الأزياء الشعبية اليمنية يغطي النصف الأسفل من الجسم، كالرداء الاسكتلندي.

علاقة لها بشوربات. سقطت السيجارة من يدي لحظة انكشافي، بلا هوية للألم. حتى ألم أقلية، هذه ليست تحديقة كردي تحت راية وكالة الغوث، ولا تلائم حتى بنغالياً فاجأه السيل. لطالما أمعنت في تحديقات ضحايا العنف العرقي ومرض الإيدز. رأيت بورتريهاً لرجل يشعر بالخزي، وجعله الفنان يحدق بعين يسرى دائرية وصورة رجل فضحته العدسة يحدق في شذوذه.

لا أحد من هؤلاء جميعاً بعينين مفتوحتين إلى الأعلى، بمن في ذلك عازف كمان أمضى ساعتين من الوله أمام عينَيْ سيدة في الصف الأول جعلها تلتقطه من أكثر من زاوية، لحظة اكتشف أنها تحدق في أذنه السَّادية التي بدت لها –حد وصفها– أشبه بأذن مدبّرة منزل تضررت من الممارسات السادية أيام كانت تعمل بالبغاء. لا أحد أيضاً من جموع قصيري، الملتهمين بشدة، كان ليسمح بصورة كهذه. لا أحد من عاثري الحظ يمني لهذه الدرجة. لا أحد يسمع قهقهات نساء كن ضجرات في الجانب الآخر من تليفون بلا رقم. أعزي نفسي أحياناً بأنه ما من عامل طلاء في الجوار.

سمعت أنه أصبح مقاولاً بحمام خاص، وأنه يذكرني بخير. لا أدري ما إن كان يعرف أنه ترك لي ذلك الصوت كذكرى للعلاقات الطيبة.

٣.

انتهت مذكرات تلك الليلة. والجلي هنا أن العزّي لم يذكر شيئاً عن المؤجر واقترح تفاصيل أخرى يظنها استجابة أولية تلقائية لمشروع أدبي، ناهيك عن أن فكرة عودته إلى القرية استحضرت معها فخر الانتماء العائلي وعليه التواجد في هذه الصورة كـ«ابن ناس» يهمه التخلص من كل ما قد يبدو مناقضاً لتلك الصورة، بالإضافة إلى مبادرة العزّي للاشتغال على خلق تفاصيل حياة بديلة، لأجل حياة جديدة أولاً، وللمران على سعة خيال الفنان. قبل أن ينام خلص إلى أن المهم هو أنه ما كان عليه ترك المؤجر يحتقر أثاثه البسيط ويمضي. وسواءً كان عليه البدء بسرد تفاصيل وقائع حقيقية أو اعتماد الخيال والابتكار، فإن تلك الحادثة مؤلمة للغاية، وبوده لو يتخطاها. لكننا سنكتشف فيما بعد أن العزّي جعل الأهمية لحكاية انتظاره اتصالاً تلفونياً قد يأتي في تلك الليلة من كونه الآن يرزح تحت وطأة إخفاق اتصاله الأخير بامرأة تخاف زوجها، وكأنه يتخلص من المعضلات أولاً بأول ويكتب، وأنه يسرد تفاصيل ذكريات قديمة كتفسير معقول لما يحدث له الآن، محاولاً إلقاء اللائمة في خيبة هذه الليلة على ضراط العالم. لم يتمكن من النوم

وتجاهل حكاية الغرفة القديمة أيام الثانوية. ينبغي التخلص من هذا: الغرفة القديمة، وهي نتاج منهج التداعيات المرهق، ناهيك عن حضورها الآن أثناء شروع العزّي في المذكرات، وبالتالي توقفت صورة تلك الغرفة القديمة على سطح مقر حزب البعث في إب(٤)، توقفت عن كونها مجرد ذكرى، وهو ما سيحدث لذكريات كثيرة أصبحت قيد الاستخدام وضمن عملية تهكم بين العزّي وماضيه.

عقب التعددية مباشرة، أيام الثانوية العامة في إب، كنا نبحث عن غرفة، فأخبرونا أن في سطح مقر حزب البعث غرفة تشترط فقط تعبئة استمارات انتساب للحزب. ملأنا الاستمارات وأقسمنا يمين الحزب.

بتنا ليلتنا على سطح المقر. طريقة تعاطينا مع صور ومقولات ميشيل عفلق فيما بعد لم تكن مهمة كثيراً، اللهم إلا وجل أحدنا من اسم «ميشيل»، أما البقية فكانت قومية عربية لم نجد صعوبة في النوم معها على سطح واحد. كان أحدهم قد عجز عن دفع إيجار غرفته العادية فاستضفناه ليلتها، وهو طالب خليط من «المؤتمر الشعبي»(٥) والتديُّن

(٤) مدينة يمنية (٢٠٠ كيلومتر جنوب صنعاء).

(٥) المؤتمر الشعبي العام: الحزب الحاكم في اليمن ١٩٨٢- ٢٠١١.

الذي لا يطمح إلى شيء، «ابن ناس» وجد نفسه فجر اليوم التالي على أحد مقاعد الباص الذي سيقلنا إلى صنعاء للتضامن مع العراق المحاصر، والاعتصام أمام إحدى الدبلوماسيات الغربية. بعد تجاوزنا «يريم»(٦)، وحصولنا على إفطار جيد، انتشى ضيف سطح البعثيين، وارتجل خطبة عن مآثر صدّام والحزب. كان في حالة انتشاء فشلت معها محاولاتنا تحويل الأمر إلى دعابة ضحكنا عليها بعد سنين، أما ساعتها فقد كان صادقاً، وأحرجنا نحن الذين لم نذكر شيئاً عن الحزب ورموزه. كنا مراهقين مستفيدين من إدراكنا المسبق لدماثة البعثيين واسترخائهم، إذ إن المبيت في غرفة، بأحد مقرات «الإصلاح»(٧) مثلاً، كان ليكون مكلفاً، أقله النهوض تمام الرابعة لصلاة الفجر «حاضر». هذا ليس تخميناً فحسب، إذ إنه في السنة التي سبقت انضمامنا للبعث، سكنّا في غرفة ملحقة ببيت العاقل الذي ينتمي ابنه للإصلاح. ناشط إسلامي كان يقتحم غرفتنا كل فجر فيشعل لمبة الكهرباء ذات اللون الأصفر الكريه بقوة ٢٠٠، ويقودنا بعدها إلى «جامع عمر». كان الضوء العنيف

(٦) مدينة تتبع محافظة إب.

(٧) التجمع اليمني للإصلاح: أكبر الأحزاب الإسلامية في اليمن (إخوان مسلمين).

يسحب قدرتنا على المقاومة، مقاومة أي شيء، وكنت أفكر في أن أجهزة الأمن قد تستخدم الإضاءة القوية المفاجئة في دفع المعتقلين للإقرار بأي شيء، وكنت أتباهى بتلك المعلومة، وكان ابن العاقل يأخذها على محمل الدعابة المستحبة.

لم يكن عبدالكريم يتوضأ، وكان يهمس في أذن أقربنا إليه في الصف: هل انتهى التشهد الأخير؟ ونعود لنسمع الكلام ذاته عن واحدة من فوائد صلاة الفجر، وهي استنشاق الأوزون الذي لا يمكن استنشاقه إلا في هذا الطريق الإسفلتي المُذل بين الغرفة و«جامع عمر». عدنا من صنعاء في رحلة اعتصام البعث تلك، نحاول بشتى الطرق تحويل أمر حماسة ضيفنا وارتجاله القوي إلى دعابة. ضحكنا بالفعل ورددناها كثيراً، ولم يواصل ذلك الضيف مشواره مع البعث. غير أننا في الانتخابات التالية كنا نعمل كما يعمل البعثيون عادة: نعلق صوراً لصدّام، ونتحدث عن مؤامرة الغرب ووحدة الأمة، مطمئنين ليقظتنا جميعاً، وحرصنا على استبعاد فكرة التجول بين الرعية بصور ميشيل عفلق. ذلك غير حكيم وغير ذي جدوى. استبعدناه مطمئنين لكوننا نضمر له في أعماقنا التقدير

الملائم، أو هكذا ظننا. أو أننا لم نفكر، من قريب أو من بعيد، بالحاجة الثقافية الفعلية للحزب، وما إن كانت صور صدّام تفي بالغرض أم لا.

حملنا صورة صدّام وألصقناها على زجاج السيارة الوحيدة التي تملكها حملتنا الانتخابية. كان مرشح الحزب إلى جوارنا ونحن نناقش أيهما سيفوز في حقيقة الأمر: مرشح الإصلاح أم مرشح المؤتمر، مطمئنين لواقعية الحزب، وعدم تطلع قيادة الفرع لأكثر من المشاركة. منحتنا تلك الغرفة دفئاً وأياماً جميلة، وحصل مرشح البعث بجهودنا على أكثر من ٢٠٠ صوت. لم يكن البعثيون بغيرنا، نحن رجال الغرفة، سيحصلون على ثلث هذا العدد، وكان ذلك عادلاً في ما أظن.

قال لنفسه: «بداية معقولة!»، ونام، ولم يتمكن في الصباح من إدراك أن تراجعاً في كمية أحلام النوم قد حدث بسبب اعتماده البوح في المذكرات، وكان يود لو أن هذا قد حدث حقا، وأن الإنسان مضطر أحياناً للتأكد من أداءاته السيكيولوجية، فهذا مطمئن أحياناً، على أن فكرة العودة إلى القرية قد اتخذت شكلاً معقولاً من الواقعية. لطالما جهد العزّي في الأيام الأخيرة في قسر أداءاته وردود فعله على مستوى من الواقعية وحتى الحذر محتفظاً في الوقت ذاته بتعداد مزايا الجرأة. كانت الجريدة مثل كل

الصباحات، بلا زملاء ولا نشاط يمكن من خلاله القول إن الرجل يعمل في صحيفة، وأن ثمة حركة تتبع أخبار ومصادفة مصور شغوف بسبق قد تمكن من إنجازه. المكتبة خالية تماماً، ولا أحد غير الحارس وأسئلة العزّي المهنية عن أجواء الصحافة ومنهج العمل المتبع في كل صحف العالم، بينما نعتمد نحن على النسخ واللصق. لا أحد غير الحارس المتفاني أكثر مما ينبغي في حماية الصحيفة، وكأنه يحمي وثائق البنتاجون، إذ جلب أقفالاً ضخمة لأغلب غرف مقر الصحيفة، موزعاً الوثائق على الغرف وفقاً لمدى خطورتها، ولعل أخطر الوثائق حد اعتقاده هي تلك المخطوطات الأولية للتحقيقات التي نشرتها الصحيفة لمذبحة كلية الطب(٨)، وكان الحارس قد نبّه في أكثر من نقاش صادف المرور قربه في المكتبة أو في مكتب رئيس التحرير، نبّه إلى وجوب تسمية الحادثة «مذبحة»، ويقوم في بعض الأحيان بشرح الفارق بين «جريمة» و«مذبحة»، وهو على كلٍّ يتمتع بقدر من النزاهة في كراهية العنف، رغم انتمائه لقبيلة متاخمة لصنعاء تعمل في اختطاف الأجانب وقطع خطوط الكهرباء ومن ثم التفاوض مع الدولة. هو يرجع سبب

---

(٨) قضية غامضة راح ضحيتها عدد من الطالبات.

مغادرته القبيلة لكونه يحب العلم رغم نجاحه بالكاد من الصف السادس، غير أن العلم موجود في مكتبة الصحيفة وفي مزاج الصحفيين من تعز وإب، الذين يمنحونه الإحساس الكافي برفقة العلم، ناهيك عن استعداده الدائم لإقراض هؤلاء المتعلمين من راتبه الذي لا يصرف منه فلساً وفقاً لقوائم القروض. وبالإضافة لمنح متعلمي «اليمن الأسفل» قروضاً مالية، فهو يمنحهم إلى جوارها نصائح لها علاقة بالاعتداد بالذات وكيف أنه لا يجدر بأحدهم النظر إلى أي قبيلي على أنه أكثر رجولة، مؤكداً لهم أن أي امرأة في القبيلة يمكنها حمل الكلاشينكوف، لكن لا أحد يمكنه في قبيلته الصبر على مكاره الدراسة.

همس الحارس في أذن العزّي، صباح ذلك اليوم، بأن خاله هو من اختطف السائحة الألمانية، وأن خاله هذا هو جد الأولاد، وأنه لا يريد لأولاده أن يتعلموا شيئاً من فضائل جدهم. استخدم توصيف «فضائل» كنوع من التهكم إزاء الحياة على حساب العنف ضمن محاولته الأثيرة تقليد لهجة المثقفين وتهكم المدنيين الذين يعمل معهم في مؤسسة واحدة. ما يهم العزّي هو جانب آخر لا علاقة له بالنشاط المطّرد للحارس في تمدين ذاته، إذ كان الرجل يسير باتجاه جانبي مثل سيارة تعرضت

لصدمة شاحنة. ثم إن هذا الجهد المدني الذي يدأب عليه الحارس غير ذي جدوى بالنسبة للعزّي وإلى الدرجة التي يمكن القول هنا إن العزّي وفي حمى تفاقمه بقرار العودة إلى القرية، فكر أن الحارس قد خدع تماماً، وأنه بمغادرة قبيلته قد عزل نفسه عن مكمن قوته، وأن قيامه باختطاف الألمانية بدلاً من قيام خاله بذلك كان ليصبح أجدى له من احترام العلم والتجول برفقة صحفيين قد يظهرون إعجاباً زائفاً بمداخلاته المدنية لمجرد ابتزازه بقرض سريع من ذلك النوع الذي يحتاجه اليمني يومياً في ظهيرة بحثه عن غداء وقات. خطر له الإمساك بكتفي الحارس ومواجهته بحقيقة كونه مخدوعاً بدُنيا لا يمكنه أن يحياها كلية، وأن الوثائق المخبأة لا تساوي شيئاً، وأن خاله أكثر نزاهة منه وهو يتصرف وفقاً لهويته وطبعه، وأن الحياة ليست فقط اللا عنف. وضمن حالة من التمادي، في ما أصبح قريباً من نزعة شريرة، قرر العزّي اقتراض مبلغ كبير من الحارس، هو ما تجمع لديه من قيمة إعلانات الأسابيع الأخيرة، ذلك أن رئيس التحرير لا يثق بغير الحارس، ويمكن للعزّي تلقينه درساً مؤلماً في المدنية، مطمئناً في الوقت ذاته لكون الحارس قد تورط في تملق أخلاق المدنية ولم يعد قبيلياً يمكن خشية ملاحقته. لم يقرر في تلك

اللحظة أن بوسعه أن يكون شريراً لهذه الدرجة، وبقي يحدق في حالة الرضا تفصح عنها حركة يدي الحارس المنهمك في كل ما يبدو عملاً مهماً ويترتب عليه مدى كفاءة الصحيفة وجاهزيتها للقيام بما ينبغي. فوجئ العزّي بالقاص المبتسم الذي كان قد وعده الأسبوع الماضي بإعداد ورقة أو دراسة للمشاركة في فعالية قصصية لها علاقة بدعم القصة اليمنية القصيرة ربما، لكن ابتسامة القاص مستفزة! إنه يجهد في تمثل خليط من الأم تريزا وغاندي، ناهيك عن ادعائه الحزن العميق لرجل تألم كثيراً. صافحه وهو يفكر في قرار من نوع أن يصبح هذا القاص نباتياً، وامتعض العزّي حقاً مما اعتبره بروباجندا الإبداع لدرجة مقاطعة القاص حينما وصلا باب الصحيفة قائلاً: «أرجوك! لا تخبرني عن أغنية لفيروز ولا تقل لي قصة جديدة للكلب الذي تبنيته مؤخراً!».

لا ورقة نقدية ليشارك بها في الفعالية. غير أنه رافق هذا القاص متأبطاً استياءه من هذه البروباجندا، ومن ادعاء الشغف بالفن إجمالاً. عليه إذن الإمساك بأكتاف كثيرة وهزها وإيقاظها من الوهم. بقي على تبرمه غير الممنهج، بينما اقتصرت ردات فعل القاص على استخدام ابتسامته المؤنسنة، مما دفع العزّي لصمت مَن شعر بضغينة.

لم يسمع شيئاً من الثناء لمقالته. كانت وجوههم متداخلة، لا يدري ما إن كانوا قاصين أم قصاصاً، غير أنهم فيما يبدو قد نذروا حياتهم للقيام بما لا يترتب عليه شيء، بما في ذلك الشهرة، لا أحد من هؤلاء سيكون شهيراً، لا ميكرفون، غير أنه كان بحاجة فقط ليبقى على هذه المسافة التي أنجزها مؤخراً بينه وبين وهم الإبداع... ما الذي يدور في هذا العالم الثقافي الفني؟! ما الذي آلت إليه مقولات الفلسفة؟! نقرأ عن هيجل وشوبنهاور ونيتشه دون أن يكون لهذا علاقة ببحثنا عن إجابات ملحة لما يحدث لنا الآن! ما الذي آل إليه أمر الفلسفة الوجودية، ولم نسمع مؤخراً اسماً متداولاً تحت مصنف فيلسوف، إذ لا يمكن بحال اعتبار فوكوياما فيلسوفاً، أو حتى هنتنجتون؟! لقد ولى زمن دريدا وجارودي، ولم يحدث زمن فلسفي لاحق. وكانت بعض محاولات التثاقف الصحفي قد فشلت كلية في الحصول على فعل فلسفي حديث كمقولة وكاسم، وانحصر الأمر في مجادلات حالة ما بعد الحداثة. إلى أين انتهى أمر السوريالية والدادائية؟! ومن يرسم الآن لوحات يمكن بيعها في ما بعد بعشرات ملايين الدولارات؟! يبدو أن العالم كله يجتر ما يشبه تمجيد براعة ذهن الماضي وموهبته الفنية. كانت إغراءات إنجاز صحافة ثقافية تستبعد

مثاقفات الأسماء العالمية الشهيرة المتداولة في الفلسفة والرسم والموسيقى، والبحث عن أداءات تحدث الآن في باريس أو برلين وفي نيويورك. مجرد حماسة صحفية تعيد إنتاج أخبار الفكر والفن المقتضبة والمنشورة في كبريات صحف العالم ودورياته المتخصصة. خلاصة الأمر أن الحدث الفني والفلسفي الكبير لم يعد يُحدث تلك الجلبة وحالة الانبهار والإلهام. الفائزون بنوبل مؤخراً لم يحصلوا على ذلك الانبهار العالمي بروايات من نوع «مائة عام من العزلة» أو بروايات ديستويفسكي الماضوي للغاية، ولم يصل أي من الحاصلين على نوبل خلال العقد الماضي كله إلى مستوى وجود نوبل الستينيات والسبعينيات مثلاً. لم يرفض أحدهم الجائزة، ولم تشغل رواياته عالم الوله بالسرد وسبر أغوار الإنسان، باستثناء جونتر غراس، الذي قام العالم بتداول رواياته بشغف قريب نوعاً ما من ذلك الشغف الذي قوبلت به روايات إيزابيل الليندي. هل يصادف أحدكم اسم نجيب محفوظ في دوريات العالم الأدبي؟! ومجدداً ما الذي يحدث في عالم الفن والعبقرية؟! يبقى أمر إنجاز صحافة مدهشة عن رسام يتعمد الإساءة لسمعته ليبقى وحيداً كما كان يفعل إدجار ديجاه، يبقى الإنجاز متعذراً، ذلك أن المعتوهين

المدهشين لم يعودوا يتجولون في السان جرمان وبين صالات العرض. وأصبح من المتعذر إقناع القارئ بقصة لوحة تم عرضها في المكان ذاته الذي سرقت منه لوحة لماتيس أثناء ما كان هذا الفنان يعاني تداعيات فضيحة جنسية، وأن الذي قام بشراء لوحته هو واحد من الذين تبقوا من زمن بارونات اقتناء اللوحات، على أن تنتهي القصة باستضافة هذا البارون لأحد فلاسفة جامعة جورج تاون من قبيل المباهاة. لا يكاد يحدث في هذا العالم ما يمكن اعتباره ولعاً بالعبقرية والموهبة، ولا يبدو أن بقية عاطفة في دنيا اليوم لا تزال تكن تقديراً عميقاً لعته العبقرية وجاذبيتها. يقتات العالم الثقافي المنشور غرائبيات وجاذبية أيام ماضية، وأسماء قديمة، باستثناء دان براون، المتداول بشدة من خلال رواياته الأقرب إلى روايات بوليسية على غرار «شيفرة دافنشي». وسيرة حياة دان براون إلى الآن غير ملهمة البتة، وغير جذابة. إنه دؤوب وشهير للغاية، محظوظ، وطبع على رواياته رقم من نوع «٢٠ مليون نسخة»، لكنه لم يدفع أحداً في هذا العالم للادعاء أن براون قد غير حياته. يتواجد الآن باولو كويلهو كمحاولة للتمسك بأيام مجد الرواية، غير أن كويلهو لم يتمكن إلى الآن من إنجاز ذلك الوجود الموحي الغامض الغرائبي،

والحصول على قراء يدعون أنهم أدركوا ما الذي يعنيه مأزق الوجود الإنساني من خلال رواياته، كما هو الحال مع أسماء لا تزال على قيد الحياة، مثل كونديرا، الموجود الآن كشاهد على ماضي تشيكوسلوفاكيا أكثر من أي شيء آخر.

ربما يعرف مثقفو العالم أسماء مهمة تنجز كتباً وروايات بمقولات فلسفية جديدة، لكن أين هي هذه الأسماء؟! وما الحدث الموسيقي المهم في عام ٢٠١٠ الميلادي؟! يبدو أن الأمر ليس في توقف العالم عن إنجاز عباقرة مدهشين وكتب ملهمة، بقدر ما توقفنا نحن عند همنجواي وديستويفسكي، وتطورنا إلى قراء لميلان كونديرا، عارفين باسم أورهان باموك، دون أن نتمكن من ترجمة علاقتنا بكل الذي آل إليه أمر مدارس الفن والأدب والفلسفة. آخر عروض البرودواي لم تشغل أحداً، والأغروف لم يعد يعرض «بحيرة البجع». وكأن المثقف الذي يتمتم حديثه بـــ«هكذا تكلم زرادشت» أصبح مدعاة للسخرية! أما الفنان الهالك الجذاب الذي يحتسي البيرة الرخيصة في إحدى حانات لندن القديمة، ويشتم العالم ويعود في آخر الليل بحثاً عن عاهرة ماضية، ليفضي إليها برغبته في الانتحار، فهو فنان افتراضي، لا أحد يظنه موجوداً الآن، ولم تتداول الصحافة

الفنية قصة من هذا النوع، ربما لأنه لم يعد من الجاذبية بمكان قيام موهوب بأكثر انفعالاته رومانسية بين يدي عاهرة. كانت عاهرات الماضي حالة من الإلهام، من كونهن حالة ذروة العالم الفني العالق في الحقل الأخلاقي، لم يعدن حالة التباس ضاجة بالرغبة والإذلال، بقدر ما أصبحن تمثيلاً لحالة استهلاك واقعي، لا يثير فضول أحد. لكأن العالم توقف عن الاشمئزاز والحيرة بشأن الحكم الأخلاقي، وتوقف بذلك المثقف الباحث دوماً عن قصة تملؤه. توقف في زمن كونديرا، ولم يتمكن من إنجاز علاقة ممكنة مع كويلهو، أو دان براون. يقول لك أحدهم: نشروا مؤخراً مقابلة مع كومبروفيتش أو سيوران... الله كم أن هذا الرجل متماجن وحقير! إنه يعيش على تمجيد فوضاه ودناءاته، ويخبرك أن هذا نشر في صحيفة اسمها جذاب هو الآخر!

وتستمر حياة التثاقف الملهم، لكن لا أحد يخبرك عن مقابلة لعينة مع باولو كويلهو أو دان براون. يندهش المثقف المفترض أن يكون هدفاً للصحافة الثقافية من الرقم «٢٠ مليون» على روايات دان براون، دون أن يحاول ولو لمرة واحدة استدعاء مقولة لدان براون بصوت أجش أثناء ممارسته عاداته الأثيرة في رثاء الذات والعالم. ليس الزهد بدان براون،

فذلك طبيعي، ولكن الزهد بباولو كويلهو، الذي يتردد الآن على هيئة أرقام هو الآخر. عدد اللغات التي ترجمت إليها رواياته أظنها جميع لغات العالم، وعدد النسخ وعدد دور النشر. غير أن مقالة نقدية لكاتب شهير لم تنشر عن حالة انفعال عاطفي شخصي تجاه واحدة من روايات كويلهو، كأن يغادر هذا الناقد المفترض مكتبته صارخاً: أيها الكذاب!

كانت الصحافة الثقافية تقدم اختصارات مدهشة، تساند مدمني التجليات الوجودية المتجاوزة التي يقوم بها مرضى العته الموهوب، أو تلك اللحظات الاستثنائية التي تقدمها نتاجاتهم الفنية. وأن يذهب هذا القارئ إلى حفلة في ضاحية مدينته العدوانية ليصرخ في وجوه الحاضرين: أيها الكريهون! محاولاً محاكاة سارتر في تصرف مشابه قام بسرده في «الكلمات»، مذكراته الشهيرة. أظن الصحافة الثقافية قد نشرت تفاصيل قصة هذا الاستياء الملهم، وحصلت على ذلك النوع من التثاقف الصحفي المدهش، الذي يلبي ربما طائفة موزعة في بقاع العالم تقتات انفعالات الوجودية الموهوبة. تقتات مآلاتها واعترافاتها وضعفها بالغ الجاذبية. حيث تصبح الحياة المنفعلة ممكنة ومتداولة على الصفحات، وبوسعها إحداث ذلك التقارب المغوي بين الإنسان وذاته المتناقضة المهددة. تنفرد

دنيا النشر مؤخراً بغرائبية فن وشخوص العرض السينمائي ومخرجيه المدهشين. المتوافر حالياً يدور بين استوديوهات هوليوود وبين هذا النهم المتجول في العالم بحثاً عن أي وميض ملهم. الباقي مجرد إنجازات واقعية، ولم يعد العالم ليلتفت، كما كان في الماضي، للمتوحدين في الضواحي المنهمكة في إنجاز رؤى تخص المصير الإنساني. والمتبقي الأكثر حضوراً هو حالة من الاستعلاء الواقعي ضد حالة ادعاء معرفة أعماق الإنسان التي احتفى بها العالم سابقاً. أسماء مهمة أو قراءات مهمة لجيل من المتعالين، على غرار سوزان سونتاج، يقولون كل ما من شأنه التقليل من شأن العباقرة كليّي القدرة. كانت الأيام الماضية تتسع لجاذبية مجازفة عبلة الرويني بحياتها في رفقة حياة الشاعر أمل دنقل الضائعة، النوم معه على أسطح العمارات المهجورة، النوم بلا عشاء ولا ضمانات مقابل رفقة جاذبية الفوضى الحاذقة والجارحة التي كان يمثلها أمل في قاهرة الأيام الماضية التي كانت لا تزال تعتقد أن ثمة جاذبية في فكرة المتوحش النبيل. قصة من قبيل تخلي عبلة الرويني عن كل شيء لأجل أمل دنقل، إذا ما نشرت مؤخراً لن تحظى بذلك المستوى من الشغف.

يتحول العالم إلى الخبرة أكثر مع مرور الوقت. وكانت الصحافة الثقافية والأدبية في الماضي لا تزال تقوم بواجبها في تغطية حياة الفن الذي كان بريئاً وبلا خبرة. ذلك أن الخبرة تقضي على البراءة وتقضي على الشغف أيضاً. وبالتالي يكون الحدث في القاهرة رواية «عمارة يعقوبيان» الواقعية للغاية، التي كتبها رجل لا يتأخر عن مواعيد عمله، أعمال تتسع للادعاء الإنساني باقتفاء أثر المطبوعات وفرزها، والحصول على حالة الإشباع، ولو في حدوده الدنيا. الإشباع الوجودي فور الانتهاء من قراءة كيف أمضى إدجار ديجاه أيامه الأخيرة، محاولاً عزل نفسه عن الآخرين من خلال تعمد إطلاق إشاعات تسيء لسمعته. فور أن يفرغ العالم الثقافي من قراءة مبحث بيكاسو عن منحوتات جياكوميتي وهو يكتب: «تشعر أن منحوتات جياكوميتي قد وجدت ملاذها آخر المطاف في ذلك الوهن السري الذي يمدها بالعزلة». رائع! لكن ما علاقة هذا كله بالقصة اليمنية! أين محمد عبدالولي وزيد مطيع دماج ونحن وجيلنا هذا الذي يحيا على السرد؟! ثم إن هذه ورشة قصة قصيرة وليست فعالية رثاء لمجد الفن العالمي ورثاء الشغف.

هكذا تحدث القاص الذي يتصرف كقائد من نوع ما. غير أن ما أقلق العزّي حقا هو تمجيده لفوضى حياة الفن وجاذبيتها، وهو الذي قرر أخيرا الإفلات من فوضاه والحياة في تداعياته الذهنية بحثا عن دنيا ملموسة في القرية، دنيا مكتظة بالعطش والعرق والاحساس بالريح. ومحاضرته الناقمة التي ألقاها على القصصيين تشي بمقاومة عنيفة لمشروع الفرار إلى الملموس المنتشي بالتذوق وليس بالرؤيوية والإلهام. لا ندرك على وجه الدقة متى اتخذ العزّي قراره الخطير بإحراق مقر الصحيفة للتشفي بالكتب تحديدا، كيف ستكون مراقبة أغلفتها المدعية للعمق والأهمية وهي تتلون وتتعقف، وخطر له وجوب التنبه لمنح المكتبة كمية أكبر من البنزين. سيكون عملا جنونيا قد يناقض واقعية حياته القادمة، لكنه بحاجة ماسة لفعل ملموس ضد الكتب وضد الأمكنة المذلة.

٤.

كان مقر الصحيفة مُذلاً للعزّي طوال الوقت، يجعله خيالياً لا يعطش ولا يتعرق. هناك في المقر شيء يجعل المرء ليس ذكوريا تماما. عاد إلى غرفته مساءً وافتعل معركة كرامة مجروحة مع المؤجر. وصفه بالقبيلي الجلف، وبكل مفردات الإدانة المتعالية على المؤجرين. حاول الرجل، في غمرة دهشته من تصرفات الصحفي الغريبة، اعتماد العقلانية كأي عاقل حارة اختاروه لهذا المنصب مؤخرا. لكن العزّي تمادى لدرجة قذف المؤجر بقنينة مياه معدنية لم يشرب منها إلا القليل، فسحب الرجل مسدسه، وشعر العزّي أنه ليس مستعدا تماما للتعامل مع شيء ملموس لدرجة رصاصة. لا أحد يدري من أين يقفز الناس في صنعاء لإنقاذ المتعاركين من المكابرة والرجولية المكلفة! سحبه أحدهم صارخا: «ما لك يا أستاذنا؟! انت عاقل أكثر من عاقل الحارة!».

كان العزّي ينزف من أنفه ويمد رأسه من بين مجموعة فض العراك ليتأكد من كون المؤجر ينزف هو الآخر، وإلا ستكون هذه بداية غير موفقة للبدائية التي يزمع أن يحياها. كانت مجموعة فض العراك قد انقسمت مجموعتين، كلا منهما تكتّف طرفاً وتثبته في وضعية يتمكن

فيها من شتم غريمه وتوعده من مسافة آمنة. المؤجر يلعن الشيطان مروعاً من إشهاره للمسدس، وكانت يده ترتعش، والمسدس قد انتقل إلى يد فتى من أبناء إخوته على سبيل الحؤول بين عمه وبين ارتكاب حماقة. المؤجر يهتز مثل جمل مفزوع، والعزّي يشتم صارخا: «والله لأدخّل حقك المسدس بمؤخرتك». هو استخدم تسمية دارجة غير «المؤخرة»، غير أننا نسرد ما حدث على أساس من خبرتنا في مفردات هذا الصحفي الذي لم يقدم إلى الآن دليلاً ملموساً على جدية قراره بالحياة البدائية، إذ إنه ليس كافياً اعتماد عراكه مع المؤجر على أنه الشروع الفعلي في حياة من هذا النوع، فلطالما تعارك المثقفون في الغرف المستأجرة، وحتى في الشقق، مع مؤجريهم، ويعودون بعدها لحياتهم العادية، بغير ما ادعاء أن أحدهم قد خاض تجربة صادمة مكّنته من التغيير.

كان العزّي بحاجة للتغيير، ولسبب وجيه للنوم في مقر الصحيفة، ليتمكن من إحراقها. يذكر نزيف أنفه بغير ما حاجة لملمس الدم، وما إن كان سيقول لنفسه: «دماء دافئة، شيء ملموس»، وهذه العبارات الاحتفائية ببوادر دنيا الأشياء الملموسة، أو أن يتأكد من سلوكه الجديد مع الدم، قام باستخدام منديل، ولم يستخدم جملة من كتاب أو من ذلك النوع المتداول

لوصف التجارب الجديدة ووصف العراك مع المؤجر بلكنة مثقف متهكم تورط في عراك أو افتتح به سلوكاً بدائياً يحتاجه بشدة. لم يحدث شيء من هذا كله، لقد مسح الدم ومضى لينام في مقر الصحيفة، خفيفاً من كل أشيائه التي في الغرفة، وهو قد قرر بخفة أنه لم يعد بينه وبين الغرفة أية علاقة من أي نوع، الكتب والسجائر اليابسة والمنولوجات الداخلية.

***

لا يذكر العزّي تفاصيل قيامه بحرق المقر. كان ذاهلاً بدون شغف بالحريق. يذكر فقط أنه كسر نافذة المكتبة بأحد مجلدات «البداية والنهاية»، وأنه عرف أن المجلد لابن كثير. أما لماذا كسر النافذة من الداخل فلم يكن لديه دافع أمني جلي للقيام بهذا الإجراء الذي يبدو وكأنه إجراء محترف يقوم به مخرب يريد إقناع المحققين بأن زجاجة البنزين قد رميت إلى قاع المكتبة من الخارج. كان وعيه الباطن قد احتفظ بفكرة بديهية تدور حول عنصر استخباراتي قام بالعملية ضد صحيفة العدالة. رأى الدخان وسمع صراخ الحارس، الذي كان اسمه «حمود» - عرفه العزّي بهذا الاسم حينما شعر أنه بصدد قتل إنسان يحمل اسماً، ولم ينم تلك الليلة في غرفة الحراسة. عندما نتهدد وجود إنسان نرى هويته وما

هو عليه، أضراسه العشوائية وكثافة حواجبه... لأنه خائف ونحن قد أخفناه لدرجة رؤيته كله. كان خفيفاً للغاية، وكأن العزّي يحمل رزمة من مرتجع الصحيفة. وفيما بعد فكر العزّي أنه فوّت، أثناء حمل حمود وهو ينقذه من الحريق، أنه لم يدرك رائحة سرواله المفترض به القذارة الشديدة. ربما بسبب الدخان، أو لأنه قد كفّ دون أن يدري عن عادته الغريبة في الاهتمام بتفاصيل صغيرة أثناء الأحداث المختلفة واللافتة تماماً للانتباه. كانا على الرصيف. لا يزال الحارس دائخاً، والمقر يحترق، ولم يشعل العزّي سيجارة. تصدرت صورته بعد يومين الصفحات الأولى لصحف الأسبوع الصادرة الخميس، بطلاً أنقذ الحارس! وتمكنت الأجهزة الأمنية من إنجاز مشهد جديد في مسرحية الانتهاك وإخراس صوت الحقيقة. هل فكر العزّي قليلا ببراءة الأمن هذه المرة فقط؟! أم أنه اكترث لفكرة الحقيقة الغائبة وإعادة فرز المجرم والبريء في لعبة الصحافة والحزبية وأجهزة النظام؟! صورته تتجول في صنعاء ومدن اليمن، بينما كان هو عند قبيلة حمود يمضغ القات إلى جوار السائحة، مكتشفاً أنها يونانية وليست ألمانية.

كان منتشياً بهذا التكريم القبلي، ولديه إنجليزية كافية لمحادثة مارينا من جنوب اليونان، حول «زوربا»، وكيف أن هذا المتمرد اليوناني كان يحب النساء بحذاقة من يمكنه الإغواء بالمسؤولية والمساندة، ناهيك عن استعراض قائمة طويلة بأسماء الآلهة اليونانية التي عشقت بشراً وأغوتهم ولعنتهم فيما بعد. لم تصد تلميحاته الإغوائية ولم ترتبك، ذلك أن وجوده بالبنطلون الجينز وإنجليزيته وزوربا قد جعلتها تشعر ببعض الأمان، حتى أنها أخبرته عن الزخرفة المدهشة أسفل الثوب النسائي هذا الذي حصلت عليه من «حريم الشيخ»، بينما كان ما يظهر من بنطلونها الجينز يفصح عن شخصية باحثة متدربة، قليلة الخبرة، ومن جنوب اليونان بالتأكيد. خليط من وجل البنت وهي تختبر مغامرة وبودها لو يمنحها هذا الضيف المثقف أملاً بترتيبات دبلوماسية سمع أنها قد اتخذت بشأن انتهاء عملية اختطافها، رغم تأكيدها المستمر أن أبناء القبائل اليمنيين مهذبون في معاملة المرأة. حمود يتفقد ضيفه ومنقذه كل نصف ساعة، مقدماً كميات إضافية من القات، دون أن يغفل بالطبع ابتسامة تفهّم لانتشاء الأستاذ وهو إلى جوار المختطفة التي يصر حمود على أنها ألمانية، بينما كان الشيخ ومجموعته من الضيوف الوافدين من فرعهم

القبلي بمحافظة الجوف يبتسمون لرطين العزّي والمختطفة بالانجليزية، مبتسمين للحديث الانجليزي بإجلال من يجلس بحضرة الذكاء.

كان ابن الشيخ، الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة، يلحّ بفضول مراهق وهو يسأل تباعاً: «أيش قلت لها؟!... وأيش قالت لك يا خطير؟!». بدا جلياً للعزّي أن الفتى لا يدري كيف يحصل على شيء من بهاء وأنوثة مارينا فيغادر المقيل مرددا: «الله الله يا مارينا!». غادر الشيخ ورفاقه فجأة. كان المغرب قد أذن، والعزّي قد سمع عن مناوشات بين القبيلة وأخرى، بينهما ثأر مؤجل وصلح انهار مؤخرا، وبدا له أن الدولة قد لجأت أخيراً لطريقتها الأثيرة في الضغط على قبيلة حمود، بافتعال حرب مع القبيلة لأخرى، ذلك أكثر إمكانية من الرضوخ لمطالب الخاطفين بإمداد خطوط كهرباء وطرقات، ناهيك عن إطلاق سراح ثلاثة معتقلين من القبيلة تم احتجازهم بتهم اختطاف أيضاً.

كانت مارينا قد ارتبكت تماماً وهي تزاحم العزّي على إطلالة من نافذة الشيخ وهما يراقبان مجموعة من مقاتلي القبيلة يجرون مدفعاً من ذلك الطراز المعروض في المتحف الحربي. حاول طمأنتها ببعد الاشتباكات عن المكان، وأن هذا يحدث غالباً بين القبائل دون أن يسفر عنه سقوط

ضحايا. سألها ما إن كانت قد فكرت في الهرب، فبكت، وصدمته دموعها بشدة. لقد بدت له لحظتها أصغر بكثير، وفي صدرها سلسلة ذكّرته بهدية أم يونانية لفتاة مخطوفة في مكان بعيد. حاول فعل شيء، ولو التواصل بالعيون، ففشل، منسحباً لخيالاته الفروسية ذات الصلة بإنقاذ الفتيات. غالباً ما يتصرف بنبالة في تلك الخيالات الفروسية، يطعمهن ويلامسهن بغير قصد، يرى صورته تلك من خلالهن كمرايا وجلة تلمح منه جانبه المتوحد النرجسي. أمسى لمارينا خارج خيالاته أمّ وسلسلة على صدر فتاة، وهو هناك يركض في تخوم القبيلة بحثاً عن منفذ متخيل لطريق مشمول بالرحمة والجنسانية. حاول الفرار إلى تلفونه المغلق منذ أيام، رتل من الرسائل والمكالمات التي لم يرد عليها، وهو كان قد أخبر محققي البحث الجنائي، حين أفاق حمود في المستشفى قبل فجر تلك الليلة، أنه كان مستلقياً في قاعة الندوات بالدور الثاني وسمع زجاجاً يتكسر، وما لبث أن اشتم رائحة دخان ولم ير شيئاً أو مشتبهاً قريباً من المبنى. أما حمود فأخبرهم أنه كان «هالك سَهَر» من الليلة السابقة، فلم يسمع شيئاً ولم يوقظه إلا الحريق في البطانية وصوت الأستاذ العزّي،

ولم يدر بعدها أين هو ولا من حمله إلى المستشفى، فقاطعه العزّي: «حضرتي يا حمود».

يبدو أن الحادثة غيرت «حمود» وأخمدت جذوة سعيه لتغيير ذاته، فقد كان يتصرف مع العزّي واليونانية بقبلية مفرطة، مثل من يعود للتدخين بشراهة، حتى أنه جلب للعزّي «زاملاً»(٩) يصفه فيه بالمغوار وأشياء عن إكرام الضيف وكسر الظلم، فقاطعه العزّي متسائلاً: «أي قبيَلة وأي رجالة في اختطاف هذي المسكينة؟!». كانت مارينا في تلك اللحظة تنقل نظراتها بين الاثنين بسذاجة من شعر -دون أن يفهم تماماً- أنّ مفاوضات مهمة بشأنه قد تخلصه مما هو فيه، حارسان مسلحان أو مرافقان أسفل الديوان، وحمود يستميت في مقاومة همس العزّي يحاول إقناعه بتهريب اليونانية. حاول الحارسان من أسفل الديوان التقاط كلمة من همس مريب، بينما كانت مارينا تهز رأسها لحمود على سبيل التشجيع. تتحدث العربية -فصحى- بإنهاك ولا تكاد تفهمها، والهمس يدور بالدارجة اليمنية عن «مكلَف.. مسكينة.. أودمة.. رجالة.. أنا وانت نشلّها ونخترط غدر... قَعْ رجّال يا حمود.. واحد سقي كلب ودخل الجنة.. تشته ترد لي

(٩) من ضروب الشعر الشعبي اليمني.

المعروف يوم خرّجتك من بين الحريق.. ولا احّد يبصر ما بين الفسالة والجودة الا مثلما يلحس الثور أنفه..»... لكن الإنسان في الغالب يتعرف أثناء غرقه لكل الآمال المبهمة. لم يطل أمر الأمل المبهم لمارينا، إذ عاد الشيخ وهتف لمارينا: «يا الله! قومي يا بنت الناس!». أخبر العزّي بأن وساطة قبلية قد أنهت أمر الاختطاف والسيارة جاهزة لنقلها إلى صنعاء الآن. لم تصدق مارينا، فحدقت في وجه الشيخ، الذي أكد لها: «أيوة أيوة، مثلما قال لش الاستاد». وحين همّ بحمل حقيبة ظهره، حلف الشيخ: «حرام وطلاق ما تدي خطوة يا أستاد». شعر بهول الأمر، فالتفت إلى حمود مروعاً من ضيافة قسرية لثلاثة أيام إضافية. حاول تجاهل يمين الشيخ، فانتزع المرافقون حقيبته بالقوة. لم تفهم مارينا ما يحدث، فأخبرها أن هذا عرف قبلي، ولم يتمكن بإنجليزيته المتواضعة من نقل المعنى الكامل لفكرة «الكرم الوحشي». ترك لها أن تمضي بهذا الالتباس الذي قد ينتهي عندها إلى أنهم أبقوه كبديل عنها. أمل واهن بفكرة تضحية ساذجة قد تحمله معها كوجود رومانسي سيتلاشى بمجرد وصولها صنعاء وفهم الأمر كما هو، لكنه أراد مرافقتها إلى صنعاء ولو كوَهم رومانتيكي ساذج.

مضوا وبقي وحيداً يستصرخ حمود الذي يبالغ في تقدير أن الشيخ حلف «حرام وطلاق» فيصرخ: «أيش من حرام وأيش من جن؟! الله يلعنك!». لا يدري كم الساعة، لكن المولد الكهربائي كان قد مضى عليه ما يشير إلى العاشرة مساء، هكذا يقيس الوقت أحياناً، من خلال شعوره بكم مضى على أدوات تحول الزمن في العمل. عاد الشيخ لمتابعة رحلة إعادة اليونانية من خلال تلفونه السيار، يحدد لهم المخاطر المحتملة ويحثّهم على التأني وتجاهل أي استفزاز. قدموا للعزّي خروفاً كاملاً، حدد الشيخ رأس الخروف، ناصحاً بالتهام المخ، فهو يجلب النوم. كان يدخن ويحقد على الشيخ والخروف، ويلاحق ذهنه ويدفعه بلا هوادة لاقتراح مهرب.

لم يكد يأكل شيئاً، وجلس الشيخ يسأل عن السياسة والأمة العربية، التي وصفها العزّي بأمة حقيرة. وافق الشيخ على احتقارها لتفريطها بالقُدس، بينما كان حمود يلحّ في تقديم حليب الجمال وشاي ولبن، والشأن السياسي الداخلي يكاد يحمل الشيخ لانتزاع اعترافات من «الأستاد» بحاجة القبائل للمشاريع، ولاعتراف شخصي بأنهم يفهمون أيضاً، والأهم من ذلك إيجاد دولة النظام والقانون. كاد يضحك من المطلب الأخير. لقد

هرب من القبيلة تمام الثانية عشرة، هرب لأن ذلك ما كان بوسعه كرجل يعاني رهاب الاحتجاز. كان مقاتلو القبيلة هناك حيث التوتر مع القبيلة المجاورة، لذلك كانت مخارج القرية خالية تماماً، وسمع من أول منعطف خارج القرية صوت المولد الكهربائي خاصة الشيخ يتداعى ويصمت تماماً. يحدث هذا في قرية ماضيه، مانحاً العزّي خاصية ولَه المراهق أيام كان مراهقاً يصغي للكلاب بعد تداعي أصوات المولدات الكهربائية على نحو متناغم بين القرى التي كان العزّي أيامها يتواجد في الظلام العام لقرى هضبة الضاحية البعيدة ساعتها عن المدينة، من خلال «جبل الشرف» الذي يمنحه الحاجز بين الوهج المديني وادعائه التجول في عتمة ما بعد الحادية عشرة ليلاً. لم يكن ثمة ما يلامسه وهو على سطح بيتهم شيء، كما كانت تفعل روح السيارات العائدة بشكل متقطع من المدينة، يراقب أضواءها تتلمس مطبات الإياب، وكان يهمس في خبرته المدمنة للون الإياب الدافئ، بأن في تلك السيارة رجلاً يخص امرأة مكتنزة، بطنها مثل حامل في شهرها الخامس، وهي من أسرة تملك أرضاً زراعية واسعة، وتستحضر تلك المرأة معها فكرة تشهّي امرأة مجهدة تماماً وقد تعرقت أغلب النهار.

كنَّ يلهبن رغبة العزّي، العائدات من حقول الذرة، بسراويل خضراء أسفلها معجون بالطين، لدرجة الحصول على روائحهن، والتجسيد الأمثل للمرأة التي كانت في الكتب، بينما هو يعرف أن المرأة العائدة من الزرع والجهد تحمل عيدان الذرة الخضراء لأجل البقرة. كن يثبّتن حزمة الزرع على رؤوسهن رافعات الأيدي لحماية الحُزم، وكانت الأثداء تهتز وتبدو وتتفاقم، مؤكدة إحداثيات الشهوة كما هي في صدر العزّي منذ طفولته حينما وضعته أمرية في سروالها بحضور البقرة. لم يدمن رائحة الروث كباعث جنسي بقدر ما كانت المرأة التي يتضايق العزّي من توصيفها العلمي، المرأة الشهوة في عالمه، تحضر كاملة ببقية تفاصيلها، وكانت البقرة تمكنه بدون جهد من التعرف على المرأة الشهوة، ليس لأنه يحاول محاكاة فلكلور شهوة الطين والجسد بقدر ما هي مسألة صورة حصل عليها تكراراً ولم يختبر غيرها في حمى انفجاره الشهواني أثناء مرور النساء الأكبر منه سناً، منهمكات في العرق وأشياء بيت الفلاح، الرعوي، وهو ينجب للدنيا امرأة مستعدة لرمي حزمة الزرع من رأسها وخوض معركة إلى جانب زوجها، محاولة في تلك الأثناء تثبيت غطاء رأسها باليد اليسرى والتعارك باليمنى. كن يتنبّهن لتجنّب انكشاف الرأس

أكثر من التنبّه لمخاطر انكشاف الصدر المحتملة، فغالباً ما يتجاذبن الحديث مع أحد أهالي القرية وهن يرضعن أطفالهن من أثداء كبيرة. كان الشعر مقاس حياء المرأة ومبعث انكشافها المهين أكثر منه مبعث اشتهاء لرجل رأى شعر امرأة تتعارك إلى جوار زوجها.

الآن هو عاجز عن استدعاء صورة متخيلة للوضع المفترض أن تكون عليه نساء القبيلة هذه. كان عليه فقط متابعة طريق السيارات، وصنعاء لا تبعد أكثر من ساعتين سيراً على قدميه. من هنا كانت رحلة الهرب برفقة مارينا قد بدأت تأخذ شكل الأداء الجاد الرهيب. ويقول لنفسه: «هنا، في هذا المنعطف، كنت سأحميها من الانزلاق بسبب هذا الطين!». واقترح مزرعة قات قديمة يابسة وبلا حراسة ليختبئ مع مارينا أو يخبئها من سيارة عابرة أو تابعة للشيخ، وكان سيصغي لأنفاسها الخائفة، واجتاحته عند هذه شهوة احتواء كائن يحميه ويفترسه بموافقته.

كان قد بدأ يتعب، لذلك جعل من نفسه نبيلاً إلى حدّ ما في مشهد متخيل لمارينا وهي تتبول خلف الصخرة ويحجم عن التلصص عليها، بنبالة فكّر أن سببها الانهاك، إذ لطالما تحكمت طاقته الجسدية بنظامه

الأخلاقي. حمود يتصل، رغم أن هاتفه بقي بلا شحن منذ الدقيقة التي قرر فيها الهرب، غير أن حمود يتصل بالتأكيد.

لا يدري كم مضى عليه حتى وصل صنعاء، لكنه زمن طويل يقارب الأربع ساعات سيراً بين القرى، في طريق ترابي كله استعادات وتأكيدات لتخلصه بدرجة مشجعة من الحياة في تداعياته الذهنية، ذلك أن مجرد التخيل ينطوي على مخاطر، لكن تخيل رفقة مارينا في رحلة الهرب كان لا يقاوم، بسبب ضعف مارينا أكثر من ملامسة الإغريق عن كثب. وكانت فكرة تشهّي الضعيف أثناء الحماية تنتقل بحدة بين إحساس العزّي بنبالته وبين إلحاح فكرة النذالة. في اليوم التالي حاول التخلص من كل العواطف ذات الصلة بفروسيته وهو ينقذ حارس الصحيفة. كان يردد كلمة «عادي» بحمق شديد، ذلك أنه ربما كان منشغلاً بلقاء رئيس التحرير وإجراءاته العملية، قدم له مظروفاً مكتظاً بالنقود ونصحه بالسفر إلى قريته للاسترخاء بعد الحريق وتداعياته. وفي «شارع تعز» كان العزّي يتحرك في السيارة التي استأجرها بثقة لا علاقة لها بشيء عدا إحساسه بضخامة مظروف النقود في جيب الجاكت. كان يغادر «شارع تعز» ويتشمم ساعة ما بعد العصر، الشمس والعرق ينتظرانه في القرية. لا يزال في «شارع تعز»، وفي آخر «شارع تعز» يقرأ أسماء الفنادق ويبدي ملاحظات نابهة حول أذواق مالكي هذه الفنادق، كأن يغمغم «فندق اليرموك، تسمية توحي بنحافة المالك».

٥.

القنوات ذاكرة

منذ غادر قريته باحثاً عن احترام وتقدير للذات يخفف عنه وطأة عار المغرم المرفوض، كان يسترجع تفاصيل هوانه رسالة رسالة. محاولاته البائسة ليبدو عاشقاً لامعاً ينادي محبوبته: «يا بنت الإغريق!». كانت «بنت الإغريق» قد سلمت رسائله لأخيها، وبدوره سلمها لأخيه الأكبر. كانت إغريقية، وكانت آلهة تفتقر للنزاهة، شأن أثينا، والعزّي لم يكن «الهيرو»، فعاقبته بلعنة المذلة يحملها معه في «البيجو»(١٠) ويلوكها مع القات وتثب عليه من بين سطور المقالات. لطالما وصفها بالفتاة البارعة الجمال، تفكر على طريقة خنفساء. قرأ عن غباء الجميلات ونهاياتهن الحقيرة. يتقدم ويركض ويروق ويمجد جمال الروح ويحصل على صداقات ذكية ومقالات ثناء على موهبته. وبقيت فرح تترصده بلا هوادة. مذلة تغتال نجاحه المدفوع بالبحث عن إنجاز يقاسمه العار، وكل ما بذله من جهود لاحتقار فرح. تساءل: «أتراها تقرأ ما أكتبه؟!». المعجبة الأولى بالعزّي وصفته بالموهوب الذي يعاني انفصاماً في الشخصية، في الأسبوع الثاني من محاولتها الرومانسية مع كاتب لا تدري ما الذي يلاحقه. المعجبة الثانية كانت من الذكاء بما يضمن تفهم مزاج المبدع والشغف بغرابة أطواره. كان العزّي فخاً مموهاً بخفة الظل، سخياً وقريباً من القلب، متهكماً وخفيفاً وكامل الضربات، وكأنه الشيطان في رواية «المعلم ومارغريتا»، قوة من لا يريد شيئاً، قوة من

---

(١٠) تحوير دارج لـ«بيجوت»، ماركة السيارات الفرنسية، تستخدم في النقل العام بين المدن اليمنية.

لا يتعلق بشيء، حيوية من لا تهدده غراميات، وعندما يريد تقفز الرسائل القديمة من مكامنها وتحيله جثة في يومها الثامن. تتهدده الرسائل من جديد، وتطفو نقائصه على السطح دفعة واحدة. يصبح العزّي أخرقاً، يهرب من المواعيد ولا يكف عن التذمر ومحاولات أن يبدو لامعاً، دعاباته تصبح سخافات، ومحاولاته تدعو للرثاء، وينتهي الأمر بتلميحات جنسية مبتذلة. العزّي حبّوب وفاتن عندما لا يريد... صديق رائع ومبهج بين زملائه، غير أنه يصيب المعجبات بالإحباط. كائن كافكاوي، «فكرة رائعة في مخيلة صديق ويقظة سيئة للذات»... ينكمش البنطلون ويُصطرع لونه مع مربعات الكوت، بين يدي فرح، العصية على الرضى، خطوات وأداءات، وكيف ينسى؟! أي حائط يكفي؟! وأين يختبئ من لعنة تراقبه وهو يمضغ القات مثل عامل طلاء باليومية؟! لا تروقها مداخلاته النابهة، ولا تكف عن مط شفتيها أثناء تجلياته الرومانسية... يتحرك أمامها يخفق ويحبط ويصطرع مع شكله وهواجسه، يصبح مسخ الدكتور فرانكشتاين، ويمسي كلباً مضطهداً أعمى، يتكوم في ركن العالم وحيداً إلا من شماتة فرح وليلها المفتوح على احتمالات رجال العالم إلا عليه. ويبقى هناك منفياً، وحاسداً. دمغته «بنت الإغريق» بعذابات العالم ومذلاته، يجوب الروايات باحثاً فيها عن تعريفات إبداعية ملائمة لذوق فرح ورأيها فيه، ابتداءً من «كلب مضطهد أعمى» مروراً بمسخ الدكتور فرانكشتاين وليالي الملقى هناك حاسداً ومنفياً. وعندما حاول في ذروة مازوخيته أن يكون «أحدب نوتردام» كانت فرح جميلة ومسيجة، ليست بحاجة لشجاعة أحدب يذود عنها ببشاعته النبيلة. وأدرك أنه ما حارب لأجل المقهورين على أعمدة الصحف، وإنما لأجل المقهور الذي كانه. الأيتام والأرامل والمخذولين،

مضطهدي الأبواب المغلقة الهائمين على قلوبهم، نماذج متعددة لمضمون واحد من الإذلال الإنساني. كان يجد فيهم دفء القطيع وملاذ التضامن الإنساني تجاه المهانة. وبغير تخطيط كان المتحدث الرسمي باسم الملعونين... ويتلو لسعدي يوسف «ليلة الأحد الثانية»: «المساء المهيأ ينتقل الآن بين العمارات، يدخلها شقة بعد أخرى، حاملاً في قرارة أكياسه المنتقاة هداياه: لحماً قديداً ورطلين من سمك داخن وزجاجة فودكا، وخبزاً وخمراً وأغنية للبياض البهيج. المساء المهيأ حصّن عُشاقه خلف أبوابهم ومضى دون أن يتذكر أني وحيد بعيد، وأن الأصابع مرهقة بالضجيج».

دوّخته صنعاء، دراسة جامعية متعثرة، وفنادق الموجة الأولى من الفضائيات، رفقة النزق الفقير مع ديون الأصدقاء الباحثين عن سخاء التلفزيون الفرنسي. كان العزّي -قبيل الصحافة- ثالث ثلاثة قرويين جائعين يعولون على كرم الغزو الفكري وبذخه وملابسه الداخلية، يرهنون ساعاتهم اليدوية مقابل ليلة ملاذ في غرفة بأحد فنادق «شارع تعز». أحواض ساخنة وقنوات متقلبة المزاج وفقاً لخيارات الريموت المركزي القادم من غرفة استقبال الفندق، قابضين على أطراف الأسرّة في انتظار عري فضائي لا يكف عن كونه تهديداً، غالباً ما يعود موظف الاستقبال إلى الله فينحرف بهم إلى قناة «اقرأ»، وتبدأ اتصالاتهم وتوسلاتهم مفصحة عن رغباتهم المذلة ولا ينامون. يغادرون الفندق على صباحاتهم اليابسة الباحثة عن مخابئ. ما أكثر العيون المترصدة لنزق الفقير المشوش بسيكلولوجيا المقامر: «والله ما نرجع فندق! كل واحد يدوّر أَهيل أو صاحب يرقد عنده...». يهبط القات المستهلك من أفق التفهم ومساندة الطلبة، عمال باليومية وتجار صغار من أصحاب

البلاد يتجشمون فداحة الرعاية، مقدمين للثلاثة قاتاً وسجائر وقروضاً بائسة معدومة. ينبهرون باستخلاصاتهم الحاذقة عن الأحزاب والفساد وحقوقهم المؤجلة، عن مستقبلهم المفتوح على نفوذ ما بعد الجامعة. صغار التجار والعمال باليومية يعلقون على العلم آمالاً عريضة ويكنّون له احتراماً عميقاً. كان الثلاثة يحصلون على النشوة القليلة على حساب هذا الاحترام للعلم. متعلمون من البلاد ينبغي مساندتهم بغيرما فضول عن لياليهم المبهمة. يهبط الظلام فيتبادل الثلاثة نظرات التواطؤ والأسئلة عن مصير المزاج، تحت رحمة ضجر ما بعد القات في مغرب موصد على عتبات مدينة عدوانية لا يعرفون فيها جسداً ولا ستائر مسدلة. لوكندة أهل البلاد توقظ القمل والمرارات. لياليها تكسر النفس وتلحق أضراراً فادحة بالمروءة. «باب اليمن»(١١) مزدحم ولا مبالٍ، والفترينات الزجاجية في «شارع حدة» تعرض كل ما هو أملس ومستحيل: تلفزيونات بشاشات عملاقة تقزم فيهم ذواتاً متعالية ومتشردة. من يشتري غرف النوم الباذخة؟! وماذا يدور خلف نوافذ فلل الحي السياسي؟! عيون تتسكع بين البوابات الفخمة والنوافذ. ظلال أنثى في طريقها إلى حمام. دنيا دافئة ملساء يتلصصون عليها بخلاعات وعيهم الباطن. هم لا يحقدون، لكنهم لا يحبون أنفسهم في المنفى. وبرد صنعاء قارس، والأتربة تتراكم على القلب. لا يعدمون شجاعة المقامر لرهن خصوصياته مقابل احتمالات ربح عري تلفزيوني متقلب المزاج.

تبدأ تبعات يقظة متأخرة والتوق حتى للصلصلة. يشتهي المعدم كل شيء يدرأ عنه تقلبات الوجوه والأمكنة. يرغب في ثوب نظيف وكوت أسود

---

(١١) أحد الأبواب السبعة لمدينة صنعاء القديمة.

و«قيلة» محترمة على حساب ذاتٍ مطمئنة ومشمولة بضمانات عمل وراتب أكيد. حاولوا أشياء كثيرة، من أحزاب اليسار إلى العودة إلى الله، وحلف عبدالعزّيز يميناً بالله العظيم: «يا عزي ما يصدقوك الإصلاحيين إلا بعدما تصلي عشر سنين فجر حاضر، وبعدا يبحثوا ملفك... أهم شي الآن حصّلنا فندق يدي الريموت ليدك([١٢]) وشوف هذي قناة جديدة، صورتهم ما يعرفوش السراويل...». أكد العزّي أن لهجتهم روسية، صارخاً: «الروس قادمون!...». في اليوم الثاني تابوا إلى الله وعادوا إلى القرية. أذن العزّي فجر ميلاده كآخر مرحلة في رحلته من الظلمات إلى النور. بعد أسبوع ألقوا عليه القبض في باب «سينما اللواء الأخضر»، فاستراح من صلاة الفجر ومن وحشة السمعة الحسنة. في الأسبوع التالي أقسم يمين الولاء لحزب الإصلاح، مستعفياً من صيام الاثنين والخميس ومن الرحلات الكئيبة.

كانوا متفهمين، على أبواب انتخابات نيابية، والعزّي مثقف قرأ ما يكفي وأخطأ بما يكفي وعشق بلا اكتفاء.. حتى أنه لم يكن ليجد الوقت الكافي ولا الشجن لاجترار تفاصيل مأساته الإغريقية مع فرح. وعيه الجنسي أبقى على أمرية وقوداً لخيالاته الشتوية حد العمى، فالتي تمر من أمام البيت واحدة مسكينة، واقع جسدي لا يستيقظ إلا بعد القات، خطيئة متخيلة دون حقيقة امتلاكها، يأس يقيني وعيون إصلاحية. استراح منها في وهدة ضياعه وانقساماته، وفي غمرة بحثه اليومي عن قات وسجائر وكتب وصك إصلاحي يعترف به «باحثاً عن الحقيقة»، دودة تبحث عن الحقيقة بوقاحة. لا يدري كيف أمسى متهكماً أيضاً! هكذا فجأة، تهكم

(١٢) إلى يدك.

العزّي على المؤتمريين فضحك الإصلاحيون حتى بدت نواجذهم، فتهكم وبرع في التهكم، وقرأ -ذات بحث عن الحقيقة- أن السخرية سلاح الأعزل. تعددت خياراته، فاستراح من وطأة الشخصية الواحدة. يستيقظ دودة ويصلي الظهر عائداً إلى الله، يمضغ القات بسلاحه كمتهكم أعزل. قرأ كتباً كثيرة أعفته من البحث عن النساء بالبحث عن الحقيقة، ثم إن البحث عن امرأة أفدح من البحث عن مصحف جلدي مطلوب لمنظمة دولية تعنى بالمخطوطات مقابل مليون دولار. لم يقلب حتى في خزانات العائلة على ما تتمتع به من سمعة تراثية مشجعة، اكتفى بالخيال المتفائل. لا أحد يتوجس من خيال يبحث عن مصحف جلدي في خزانة الحاج عبدالحميد، ومن يرى عزّي متخيلاً ينام مع جميع النساء؟! لم يكن العزّي شيئاً، فاستباح كل شيء، كما فعل الكاتب البلقاني كميروفتش، الذي قدم للعزّي غطاءً أخلاقياً للتخلص من الأخلاق. وعندما اشتعلت الانتخابات النيابية وعدوه بوظيفة فانضم للمؤتمر. ماطلوه، وكان يائساً من مطاردة ثمن بخس. امتلأ بأزمته الوجودية منحازاً إلى كل ما هو ضعيف ويتيم. يحدق في النهايات واللاجدوى مغتبطاً برثاء الذات وعذابات الآخر. ألقى بكل شيء على كاهل الصدفة، فوضعته في طريق الصحافة. كتب في كل شيء: الدين والميثولوجيا، ثلاث قصص قصيرة، وترجمة مدهشة للصراع المأساوي بين همنجواي والموت. على أن الأول مصارع ثيران أصيل أنجز روايات تتحدث عن جيل الحرب الضائع، والثاني (الموت) غريم أعمى طائش الضربات ولا يكف عن كونه استفزازاً لجبروت القلوب القوية، وكيف أن على الرجل أن يذهب إلى الموت دون أن يقع في جحيم فعل، وأن يتصرف طوال حياته كخاسر ومحتقر وكدمية لا قيمة لها.

توهج العزّي بنموذجه الأثير ووجد فيه مثالاً للتبول على رأس دنيا تقذفك إلى الميدان أعزل، وعند أول خطأ يقتلونك. أحصاهم ورتّب لهم جحيماً بقي شاهداً على فوضاه، حسن حمادي وعلي عبدالكريم وياسر وابن خاله وخاله والعابر ذات عصر وجندي الزكاة وصاحب دكان القرية والأستاذ حسن وعبده ابن عم العزّي، الذي ذهب إلى الموت عبر جحيم فعلي وتصرف طوال حياته كخاسر ومحتقر وكدمية لا قيمة لها.

لم يكن أمام حسن حمادي غير البحث عن قبول مستحيل. تزوج ابنة الوجيه وفرغ لانتظار خسارتها. مضغ القات بفم دمية مركوزة في مقيل لا يشتعل إلا بعدمية متسامحة. يتقاذفون أسراره الزوجية وحياته الخاصة التي تتسرب من أصابع النسوان ويلوكها رجال بنت الوجيه الفعليون بشماتة. لطالما جهد حسن في التفاني، فيما كانت قرون الثيران تغرز في فراشه. منذ الليلة الأولى حدق حسن في وجوه الشواعة([١٣]) بذهول من لم يصدق أنه زوج بنت الوجيه. يحدق من طرف الوسادة في ملامح زوجته غير القابلة للامتلاك. يحدق، برأسه الكبير الضاج، في أنفها الحاد كمن يراقب من حافّة حيد وينزل بيمينه إلى سفح نهديها كمن يتلصص من بين المارة. وجهين لخسارة واحدة، وبينهما وسادة يتشمم فيها رائحة رجال كثيرين. توليه ظهرها، فيحُك أعضاءه الحساسة مصغياً لأنفاس نومها اليقيني، ويبدأ في ممارسة العادة السرية، متخيلاً زوجته في حمام بيت أبيها. ومع الأيام اعتاد رائحة الرجال على وسادته الزوجية وأدمنها حد ممارسة العادة السرية على مشاهد افتراضية يراقب فيها زوجته جاحظة العينين من فرط اللذة مع رجل بلا ملامح، رجل غيره يتحاشى الإمعان

(١٣) مرافقو العروس إلى بيت عريسها.

في تضاريس جسده كي لا يعرفه. ذهب حسن حمادي إلى الموت دون أن يدرك حتى جحيمه الفعلي، لكنه تصرف طوال حياته كخاسر ومحتقر ودمية لا قيمة لها.

تعلم العزّي من همنجواي كيف يمتلئ ويحيا على احتقار حيوات أخرى، الامتلاء بالنظر من علٍ إلى دنيا تافهة ومكتظة بالعذابات المجانية. العالم باعتباره حسن حمادي في أكثر صوره جلاءً، عالم لا شيء فيه غير التفاهة وعذاب الروح، وحيثما حل فائض من العلم، حل فائض من الحزن، ففاضت أعماق العزّي حزناً منحه شعوراً بحب نفسه. بدأ العزّي يغرم بالعزّي. أثناء رثائه المصير الإنساني كانت دنياه منتزعة من ومضات أدعية بشّر بها بحماس مفرط دونما توخي الحذر. ينام في مسرحية ويستيقظ في لوحة ويكتب محاكاة في طريقها إلى الجدة والأصالة. هكذا كان يعد نفسه، ويعلم في الوقت ذاته أنه سيدفع ثمن حماسته المفرطة وتوحده بميتافيزيقيا وأدب أمم أخرى، أمم تخلصت من ذهنية التحريم، أمم لا تمضغ القات.

***

ما سبق محاولة معقولة لتبرير اكتظاظ محاولة روائية بروايات ومقولات متداولة، وكأننا في بحث نفسي عن سيكلولوجيا «عزّي» متباهٍ أو «عزّي» يصدق كل الذي يقرأ. لكن ذلك هو العزّي، وذلك ما حدث له بالضبط، حتى أنه في نهاية الأمر بدأ يحاول أن يشعر، بدأ يستثمر الأدب في الحصول على مشاعر تقربه من نفسه أكثر، حوّل الروائيين إلى قوادين بينه وبين ذاته، وانتهى الأمر بقراءة: «عندما يبدأ استثمار الدموع.. تكف عن كونها دموعاً»، ففقد الحزن الفائض لأجل مصائر

الآخرين، ومعه فقد علاقته الغرامية مع نفسه. وبما تبقى لديه من كلمات وأساليب استعراضية حاول العيش على حساب المواقف السياسية، فأدركه الضجر وعاوده الشعور بالضياع. وقع مرة أخرى في لعنة فرح و«أنا العزّي، أنا كاتب، أنا...». في الليالي الباردة يحاول يائساً نبش مقابر حسن حمادي ليجد في رفاته بقية من تضامن إنساني يعيد إليه ساعة من أيام الحزن الجميل: «خلاص! أقسم بالله! أقسم بالله ما أستثمر الدموع! الله! مسكينة مرة(١٤) الأعرج! ستموت وحيدة، إن البكاء صلاة المحاصر... خلاص! حقي معي، لازم أفعل شي!». يجب فعل شي! على المرء أن يكون شجاعاً ونزيهاً ليجد ذاته مرة أخرى، ربما في قصة حب عنيفة! ربما في العودة إلى الله، أو العودة إلى القرية، أو على طريقة إيزابيل الليندي عندما حاولت تضميد جراحاتها لرحيل ابنتها (باولا) بكتابة رواية اسمها «باولا»، فلمعت في رأس العزّي فكرة الرواية، ولكن بحثاً عن الحزن.

وصل إلى «نَقِيل سُمَارَة»(١٥) وفمه مليء بالقات. من هنا يمكنه البدء في التصرف على أنه في بلاده، إذ لم يعد هناك أكثر من ساعة ويصل إلى إب، ومنها إلى القرية. ولسبب ما، بدأ ذهن الصحفي يتحدث لا إرادياً ويصف المنعطفات بتلك اللهجة المتداولة في الاستطلاعات الصحفية، حيث المبالغات وتملق ارتباط الإنسان بالأرض، بالإضافة إلى البحث عن حكايات ذات صبغة أسطورية. وبحماسة من يبادل ماضيه تهكماً من

---

(١٤) امرأة.

(١٥) جبل مرتفع تزداد فيه منعطفات الطريق بين صنعاء وإب.

نوع عملي، بدأ العزّي في مجاراة الصحفي الذي كانه، ليورطه في سلسلة عبارات مستهلكة، ليتمكن من التعالي على الصحفي الذي كانه، والحصول على تأكيدات إضافية لصواب قراره المصيري بالعودة إلى البداءة والعطش والعرق والحياة في ما يمكن ملامسته.

وبدأ الصحفي: كن حذراً ولا تبالغ في الضغط على كوابح السيارة وإلا وقعت في الهوة السحيقة وانتهت حكايتك إلى حادث مؤسف يتكرر يومياً في نقيل سمارة، الذي يشبه أمعاء بغل! من هنا تبدأ إب، حيث الخضرة الهائلة وتداعياتها التي بدأت من قدرتها على إعادة توزيع الجغرافيا السكانية على عاتق الذرة وحكايات موجات الهجرة الداخلية، من البحث عن ملاذ من غائلة الجوع، وانتهاءً بصراع التكتلات القبلية الجديدة. أخيراً تجاوزنا آخر منعطف في سُمَارة! أصبح عليك الآن الخوض في أول أسرار إب ومفتاح استثنائيتها، الذي اختصره علي ولد زايد: «إن كنت هارب من الموت ما احّد من الموت ناجي، وإن كنت هارب من الجوع اهرب سحول ابن ناجي». وعلي ولد زايد هذا رجل لا يعرفه مؤرخ إن شئنا الدقة، إنه أكثر من شاعر وأقل من فيلسوف. كان يوماً ما يسكن قرية «منكث»، أعلى سُمارة. تعدد الرواة، وتعددت حِكَم الرجولة وكلمات العشق لهذه الأرض لمئات الناس عبر مئات السنين، ولم يجدوا سوى علي ولد زايد متحدثاً رسمياً. أما «سحول ابن ناجي» فأمامك مباشرة: أحد أشهر أودية اليمن وحقول الذرة: العملة الوحيدة التي بقيت متداولة إلى اليوم. يحمل الفلاح كيس الذرة ويستبدله بالملابس والغاز والملح. الماضي الجميل البسيط لا يزال ينافس العملة الورقية والريالات الهزيلة على استحياء. «سوق السبت» على جانب الطريق. كانت الخضرة الباذخة تفضي إلى «سوق السبت»، أحد أشهر أسواق الأيام في

اليمن، التي تبدأ من السبت وتنتهي بسوق الجمعة. ساحة مستطيلة تنتهي إلى مجموعة دكاكين صغيرة مضى عليها قرون من احتواء المقتنيات والحبوب والأجبان. ضجيج هائل وزحام تجاوزناه بصعوبة إلى «المرباع» (سوق الحيوانات). يتداخل ثغاء الخرفان بصراخ «القَمّاطين»([١٦]) يعلنون آخر سعر لهذا الثور المملح الذي يربت صاحبه على ظهره بأسى. اسمه محمد عبدالعزّيز، جاء إلى سوق السبت لبيع ثوره بما قد يصلح لعلاج زوجته (هكذا قال). ومحمد عبدالعزّيز تجاوز العقد الخامس من عمره دون أن يفوته سوق سبت واحد. مضى تاركاً ثوره «زَهِر» يتلكأ خلف صاحبه الجديد. أقسم أنه كان يتلكأ وفي عينه ذلك الحزن الحيواني الصامت والعميق في ضجيج سوق السبت. أما القمّاط فوسيط حاذق، يعدد مميزات الحيوان ببراعة، مستعرضاً قدرات الثور على حرث نصف وادٍ في يوم. وبين القمّاطين لغة خاصة تشبه الرسائل المشفرة، حتى لا يدرك البائع أو الشاري حقيقة الصفقة. كان الزحام أكثر من حزن الثيران والبحث عن إجابات لأسئلة كثيرة. سقطت الكاميرا من يدي فاجتاحتني مشاعر تيس، من يمكنه انتزاع ذاكرة سوق السبت من ماضيه الذي لا يزال ينبض بحيوية فائقة؟! إنها ورطة تشبه ترديد الكلمات الجوفاء. سوق السبت يعني اقتناء الأصلي: «حمار القرش غالي وحمار المية رخيص»! أشياء الفلاح وحكايا المكسب والخسارة ونكهة الجُبن البلدي تتفوق على أشهر ماركات الجبن العالمية. يقولون «سوق السبت»، فيتذكر الفلاح ثوره الوحيد، ويحلم الأطفال

(١٦) سماسرة الاتجار بالحيوانات.

بـ«العطوي»(١٧) رغم أنف الشوكولاتا. يقولون «سوق السبت» فيؤجل حميد مُلهي خلافاته وينساب مع إغراء الزبيب على مدى نصف قرن. يقولون «سوق السبت» فتدفع الحوامل المدللات رجالهن لاقتناء «صُلعة» جُبن بلدي، و«إلا خرج المولود أعور»(١٨). في مخرج السوق كان بني عِنَان يأخذون حقهم ممن باع ومن اشترى، باعتبارهم أصحاب السوق. مردود أسبوعي دفعهم للاقتتال على جولات بدأت بسقوط الشيخ قاسم عِنان، وانتهت بمقتل الفتى نشوان. لا يزالون على عادتهم، ينهون خلافاتهم العائلية بالبنادق، ولذلك قالوا: «حكم بني عِنان بسوقهم». السحول لم يتوقف بعد عن استقبال المهاجرين الباحثين عن فرص حياة في خصوبته. تحولت معظم حقول الذرة إلى مزارع قات «سمعته سيئة» إذا ما قورن بالقات الميتمي. ثقافياً الذرة أفضل من القات، وعملياً: القات أفضل من الذرة بكثير. لقد تحول فلاحو السحول من «رعية» إلى بورجوازية صغيرة اجتذبت مقاوتة(١٩) قدامى وشذاذ آفاق شنقوا الجندي على حافة الجسر الذي يردم ضفتي سائلة وادي الجنات. عصابة أفسدت معنى وادي السحول في الذاكرة الجمعية. قتلوا المارة أو نهبوهم. رد الجنود بالنيران، فانتهوا إلى عصابة منظمة كانت تقطن وادي الموت إلى يمينك تماماً حيث التلة الصغيرة تحتشد بالبنادق والتين الشوكي. انتهت قصتهم إلى محكومين بالإعدام وذكرى سيئة.

---

(١٧) حلوى محلية.

(١٨) في الثقافة الشعبية اليمنية أن تلبية الاشتهاءات الطارئة على المرأة الحامل يساعد في اكتمال خلقة الجنين.

(١٩) تجار قات.

مع صعود السيارة في الطريق إلى مدينة إب كان وادي السحول يستحق التفاتة جديرة بدغل أصيل لم يكف عن كونه أخضر. ومن الماضي الحكائي، كانت الفتيات السبع يتيمات، تركهن الأب إرضاءً لزوجته الشريرة. هناك في مغارة جبل بعدان، المطل على السحول، ومن قلب المغارة، كان نداؤهن الأسطوري يتصاعد: «أباه أباه... كم لك تبول، أسقيت عنة ووادي السحول». بقيت الحكاية صالحة لمقاومة الملل لعجائز القرى المطلة على الوادي، قرى «الشرف» و«عتيق» و«المرزوم» و«شعب يافع»، حيث تميزت عجائزها بميراث الحكايات المسائية المرتبطة بنكهة المكان: السحول، وتفاصيله وأشيائه، ومن ضمنها حكاية البقرة، وما أكثر بقر السحول المزركشات! حكاية البقرة لها ترجمتها الشعبية باسم «سُمْأة الديدة»، فكل حكاية تعني «سُمأة»، وكل بقرة «ديدة»، بالنسبة للأطفال على الأقل. سُمأة الديدة هذه حكاية منغصة من جهة طبيعة السرد، إذ يبدأ أو تبدأ هكذا: «أقول لك سُمأة الديدة؟»، فيجيب الطفل: «أيوة». فيقول الحاكي: «لمُه تقول أيوة؟»(٢٠)... وتستمر متوالية الإجابة عن السؤال بسؤال، إلى أن ينفجر الطفل باكياً، وتضحك الجدات بعد حصولهن على ما يبدد الملل. الأمر على قدر كبير من الجدية، فحكاية البقرة «سمأة الديدة» على غرائبيتها المحلية تستحق كلاماً مملاً كهذا، فلقد ظهرت في الأدب الشعبي لبعض شعوب أمريكا اللاتينية والجنوبية، وضمّنها جارسيا ماركيز في رائعته «مائة عام من العزلة»، حيث يحاول سكان قرية ماكوندو مقاومة وباء السهر الممل بسرد الحكاية ذاتها على بعضهم حتى لا يقتلهم الملل.

---

(٢٠) لمُه: لماذا.

في «مائة عام من العزلة» ثمة إشارة إلى التجار العرب، فمن نقلها إلى الآخر؟ وعلى نكهتها السحولية الفائقة يبدو أن الحكاية بترجمتها الحرفية قد هاجرت من أمسيات عجائز السحول إلى عجائز ماكوندو في أقاصي ريف كولومبيا. لقد كان ماركيز محقاً عندما قال عن واقعيته السحرية إنها الحرية والبساطة في الحكي وتصديق الخرافة التي أخذها عليه لويس بورخيس، وقال متهكماً: «ماركيز هذا ولد مشاغب، يحفظ كل حكايا الجدات». ومع أقمشة التجار العرب، التي كانت تبهر نساء ماكوندو، ثمة حكاية ديدة كانت مخبأة في ثنايا قماش سحولي، وتحول الآن إلى مجرد ذكرى عطرة، ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام، وقبل موته بأيام، أوصى بأن يكفن ببردين سحوليين. بعد قليل ستطل على مدينة إب، مروراً برؤية بعيدة لشلال يسقط من شاهق بعدان. لا تحاول، فهذا هو المكان الوحيد لرؤية شلال يستعصي على الاقتراب! وغير الحكايا، ففي إب ما يبدد الملل، على اعتبار أن المساء لم يحل، فليس هناك ما هو أكثر ضجراً من مساء إب. عندما رآها أمين الريحاني بهره الهمسُ بين زحمة الدور وفتوة السنابل في وادي الظهار، فقال: «إب قبضة لؤلؤ على بساط أخضر». لو رآها اليوم لاعتقد أنها بنطلون رث تخلص منه عامل طلاء باليومية. في طريقك إلى إب القديمة يجدر بك تجاهل زعقات الدراجات النارية أو البحث عما يدهش. تجاوزنا «شارع صنعاء». إلى يسارك «ميدان الكبسي» ينبعث منه دوي هائل، لا تدخله، فثمة مباراة بين فريقي «الشعب» و«الاتحاد» ستنتهي بعد قليل باشتباكات دامية بين المشجعين! منذ ٤ عقود وهم يتقاذفون بالزجاجات الفارغة في سبيل فريقين شطرا المدينة إلى نصفين لدودين. أما هذه الرائحة العائلية فبسبب «الكِشْت»، أشهر وجبة في صباح إب (يطلقون

عليه في المراجع العلمية: اللوبي). «الكِشْت» مسألة إجماع غذائي يميز إب ويمنح سكان ضاحية «الخربة» و«عيقرة» فرصة عمل وربحاً جيداً، على خلفية تخصُّص في زراعته وتفوُّق في إعداده. تتصاعد أبخرتها مع ساعات الصباح الأولى وحتى ظهيرة كهذه. وإذا قال لك إبّي إنه فرغ للتو من التهام ألذ إفطار في العالم فلا تذهب بعيداً وتفكر في الكافيار أو السجق! المسألة لا تتعدى صحن «كِشْت» تتصاعد منه الأبخرة. أمامك خياران للصعود إلى إب القديمة: كسائح من الدرجة الثانية، تجتاز السلم الحجري مروراً ببقايا «سمسرة الدشل»([٢١]) التي ظلت وحتى قيام الثورة بناءً وحيداً يقبع خارج الأسوار. بعد العشاء كانت إب تغلق أبوابها الرئيسية، فلا يجد الغريب سوى سمسرة الدشل، يجد فيها ملاذاً وعلفاً لحماره، أو بغلته إن كان من علية القوم. يصلح المكان لالتقاط صورة تذكارية لإب الجديدة، وطرح بعض الأسئلة السمجة على المارة من أبناء إب القديمة، الذين لا تنقصهم الكياسة والقدرة على السخرية. قلت: «يا حاج، لو سمحت، ليش كانوا قبل الثورة يغلقوا باب الكبير بعد المغرب؟!». قال: «لأجل ما يدخلش أهبل مثلك». كان ذلك مجرد تحية مبدئية، والباقي هناك في الأزقة، التي تؤكد أن هذه المدينة ليست أكثر من مزحة. الأسلوب أو الطريق الثاني هو الأكثر متعة، على ظهر دراجة نارية خلف أحد الفتيان، ورث المهنة عن أبيه في الغالب. لقد فشلت كل محاولات إدارة مرور المدينة اختراع طريق للباصات التي تمر شبه فارغة إلا من المسنين جداً. إنهم يفضلون الموترات (الدراجات النارية) وبأجرة مضاعفة. يقول نبيل علوي، عازف العود الشهير في

([٢١]) يمكن اعتبار السمسرة معادلاً لما كان يعرف بالخان.

إب: «من يشوفك وأنت راكب باص؟! الموتر حقك وحدك، وبعدين ترفع يدك اليسرى لتحية الأصحاب، لدرجة أن الأستاذ محمد الربادي(٢٢) ظل وفياً له حتى أيام عضويته لمجلس النواب، لذلك علق منافسه على الأمر قائلاً: «الحكومة صرفت لأعضاء مجلس النواب ٣٠٠ سيارة ومُوتُر للربادي». عندما مات الربادي بكته إب بحرارة جديرة بمناضل ومثقف قومي شريف رفض كل إغراءات وميزات نفاق السلطة. ستجده عند اجتيازك «باب الكبير» صورة تذكارية بقبعته الخيزران الشهيرة إلى جوار عبدالناصر وبومدين وإبراهيم الحمدي.

يستيقظ مُثَنَّى ويفتح دكانه الصغير. ينفض الأتربة المحتملة عما تبقى من رجال العروبة، التي كانت تعني بالنسبة له حياة، لكأنهم ليسوا مجرد ذكرى في إطار! يمنح صورة عبدالناصر اهتمامه الأكبر، وكأنه يصلح وضع ربطة عنق الرئيس قبل افتتاح مهرجان قومي. مُثنّى يحاول إيقاظ ماضيه كل صباح. سيمر من أمامه راكبو دراجات نارية ومشاة لا يملون التحديق في عيون القادة. لطالما هتف مُثنّى ضد الإمبريالية والرجعية و«إسرائيل» والملكية. وبقيت إب قومية لا تأبه للتحولات. اقترعوا في أول انتخابات وحدوية لصالح الربادي، الذي مات بعد فوزه بشهور، فنصبوا ابنه، قليل الخبرة، رغم أموال وضغوط السلطة، وغير آبهين للإسلاميين. لقد اقترعوا لصالح بقائهم. كان الشارع الضيق المرصوف بالأحجار يقود إلى قلب المدينة، حيث السوق الأعلى والميدان. طريقٌ ملسته الأحذية والإطارات. طريق يفضي إلى الستينيات، ولا شيء غير

---

(٢٢) أديب وإعلامي وخطيب وسياسي، عضو مؤسس لاتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، ورئيسا للاتحاد في الفترة ١٩٩٠-١٩٩٢، توفي عام ١٩٩٣.

الستينيات، ابتداء من السَّلَطة والكباب، مروراً بصور أساطين القومية والخيار الانتخابي الوحيد و«صوت العرب» وأحمد سعيد يكرر بياناته على شريط مسجل... لا تتردد في دخول مطعم ابن عمر، الذي يشبه مدخل سرداب. ستحصل على وجبة «سلتة» حارقة عمرها قرون. في الجوار ثمة فنجان شاي في انتظارك يهتز على يدٍ معروقة قدمت الشاي يوماً للرئيس الحمدي. وعلى هذه الدكة نفسها جلس الرئيس الحمدي ذات صباح منح «الربعة» هذه الطاقة على الاستمرار في تكرار صباح تجاوز ٦٠ عاماً. أنت الآن أمام الجامع الكبير، الذي أسسه عمر بن الخطاب، وخطب على منبره كثيرون، أشهرهم فقيه اشتراكي اسمه «الربادي»، الذي خلفه رشيد الصباحي بعد عودته من «الجهاد» في أفغانستان. لم يتخلَّ أبناء المدينة عن قوميتهم، فانتخبوا «رشيد» لأنه متواضع ويدعو لمقاومة الظلم. انتخبوه ولم يتوقفوا عن اختراع النكات التي تسخر من الحزب الذي يمثله. هذه هي إب: ستينيات الأحلام والمفارقات والمزحة المأساوية. مغاطس الجامع الكبير تحتشد بهجمات الكهول وفوضى الماء الذي يخلصهم من الظهيرة والقيظ. لم أُهَمْهِم على سبيل التأكد، ودخلت المغطس لأفاجأ بكهل يحاول الطفو على ظهره. كان عارياً تماماً وعلى وجهه ابتسامة رجلٍ مضياف. قال لي: «تفضل غداء!». على هذه المئذنة ظل الغرباني يرسل تباشير الفجر عبر صوته الذي يصل إلى الضاحية كأقوى مكبر صوت جاء بعد رحيله. نصف قرن والغرباني يحدد لبائعات الخبز ومُعدّي الكباب موعد استيقاظهم. يقولون: «كنت أقوم من النوم والغرباني يسبِّح». تغادر الجامع الكبير نقياً بسيطاً وعلى شفتيك ابتسامة لذكرى قاسم الفقيه، الذي لم يكن يتردد في صب اللعنات على رؤوس المصلين قائلاً: «ساووا الصف لعنة الله

عليكم! ألف وأربعمائة سنة ومش قادرين تساووا الصف؟!». هذا الزقاق يقود إلى «الجاءة»(٢٣)، والسينما، التي تعرض فيلماً هندياً شاهدته قبل ٢٠ عاماً عندما أتيت من القرية باحثاً عن البطل فتحولتُ إلى طريدة، ذلك أن فتيان الجاءة توقفوا عن متابعة الفيلم ليعبثوا بطاقية القروي المتسخة. لا شيء لدى مدينة الطالب الثانوي سوى ضجر مسائها العتيد. سيلوذ بآخر سيارات القرية من موجة الضجر الأولى.

الهارب لا يستطيع الحزن، لكن روح العزّي كانت تجيش برغبة عارمة في الجماع، مثل محكوم بالإعدام استيقظت فيه شهوات الحياة بلا هوادة. السائق مرةً أخرى، وما تبقى من نزق السائقين ومطبات الطريق ومعالم الماضي، والعزّي يرتجف شجناً ورغبة، عاطفةً استثنائية غير مأمونة. حاول الفرار إلى استعادة ومضات قديمة تصلح لعودة مهاجر في السعودية، مخدراً باستعادة مراحل طريق مراهقته من قبيل الوفاء للأمكنة، ومن ثم التخلص منها مرحلة مرحلة، خطوة خطوة، إلى حيث الجسد المشتعل وفاءً وغلمة. إنه دورٌ عزيزٌ على نفس العزّي، لكنه لم يتمكن من تقمصه، إذ كان يلح عليه خفقان قلبٍ مكلوم في صدر عسكري راتبه ضئيل. كان العزّي غامقاً ومثلوماً لا يلوي على ذاكرة وليس به رغبة في ادعاء صعود «نقيل الجزار» بحميمية أو بمهانة جديرتين بجزار طازج حصل أخيراً على شخصية ملائمة للتدفق الآمن. كان قد افترض أن في أعماقه جِنّاً وصرخات أطفال. يدمن مثقفو الألم العظيم اختراع طفولة تخصهم بعذاباتها، خذلانات وبوح واعترافات ليلية... وينجح الأمر متوجاً برواية، ومحمد شكري كتب مهاناته الجنسية

---

(٢٣) إحدى حارات مدينة إب القديمة.

وخذلانات معدته في صفحات عنونها بـ«الخبز الحافي» أو يوميات عاهر. ولكل زمن قالبه الروائي وعاهروه المشمولون بروح التفهم لشجاعة فنان تبول على قبر أبيه وانصرف بعدها لكتابة التفاصيل.

***

كان العزّي ابناً عادياً لمغترب عادي ولم يكن منفياً البتة، يضرب «علي» بلا رحمة، ويجفل كلما شاهده «يقترب من ملعب»، لديه صاحبٌ مختصر وسخي اسمه الكذاب، وأمّ تعطيه كل أربعاء ريال سوق، ولا تصدق تبريراته الواهنة لضياع حذائه، فتكسر على جسمه ثلاث عصي معمرات. مِعْلامة(٢٤) ومعلم قرآن والعزّي (مَعْلَمي) يجيد الحفظ والهروب وتلقي الركلات. أول من تعلم العوم وآخر من يغادر السائلة. وهكذا وهكذا، ويرعى الحمار ويعود من دونه. قالت أمرية للعزي: «أنت زوجي... وين راح زوجي... تعال يا زوجي...». وذات مساء دخلت إلى البيت بالشال والجنبية(٢٥) مثل مرافق عروس بكامل هيبته. ارتدت ملابس زوجها المغترب وخرجت على الجيران تفاجئ مساءهم بدعابة أربكت نسوان الحارة وأوقدت عيون الرجال. لم يكن العزّي رجلاً بعد، غير أنه ترجل مغرب اليوم التالي ودخل عند أمرية ليصرخ بطفولةٍ وسخة: «أين زوجتي أمرية؟». كان مدفوعاً بذكاء الغريزة التي أدركت أن جسد أمرية قد استبد بليلها، فضمدته بما تبقى من رائحة ذكر بعيد.

---

(٢٤) المعلامة هي «الكُتَّاب».

(٢٥) الخنجر اليمني المعروف.

«وصلنا يا عزي! وينك سارح؟!». قالها حسن بنبرة سائق خالي البال إلا من عشيقاته القديمات. افترض العزّي بتشاؤم أن أمرية عشيقة سائق يعود عندما يظلم في نفسها كل شيء فلا يبقى لها سوى ومضات يرسلها حسن من أول منعطف يشرف على القرية. لهجته ظافرة ورائحة ملابسه تدوخ النساء الوحيدات. اعتقد العزّي أن حسن سائق سوقي ومحظوظ، فكرهه حدَّ المذلة، وتذكر «قلّاب» حسن الذي كان يحمل به الأحجار، وكيف كان يضع صورة سميرة توفيق على الزجاج الأمامي. كان حسن ذات عصر قد تخلص من حمولة الأحجار هنا، في هذا المكان، واستبدلها بحمولة مراهقين من أكثر من قرية، وتوجه بهم صوب السينما في إب، حيث العرض التاريخي لفيلم يعرض امرأة عارية. كانت لحظة تفاقم ونشوة جماعية أظهر فيها حسن تمتعه بروح الشغف والتفهم وقدم للفتيان قلابه الأحمر الشهير. ما إن رأى الناس برتة السينما بإب حتى احتشد العشرات قرب الإعلان السينمائي عن فيلم اليوم. كان فيه ساق عارية تماماً، لأول مرَّة! طار الخبر في الأرجاء، وتقاطر القرويون من الضواحي راكبين قلابات نقل الأحجار، متعلّقين قرب نافذة السائق وفي الحامل الخلفي لـ«الشاصات» ذات «الثربات»(٢٦)، والذي أوصى لابن خاله برسول ينبهه لأهمية المشاركة في الحدث. امتلأت السينما، حتى ردَّ عبدالكريم، القائم على الباب، أناساً كثيرين، وأدخل بعض معارفه بالوساطة. تدور أحداث الفيلم في غابة مطرية، ونحن واقفون تقطر ملابسنا ماءً وانتظاراً لاهفاً لتلك الساق العارية التي شاهدناها في البرتة (لوحة الإعلان).

---

(٢٦) ألواح بلاستيكية مرنة يتم تعليقها خلف إطارات السيارات للزينة ولمنع تطاير الطين أو الأتربة، ويقال لها «ثربة» لأنها تشبه ثربة (ذيل) الخروف.

كنت تلمح ابن الشيخ وابن سائق البابور، ورجلاً عاقلاً من بلاد أخوالك أتى هو الآخر تلبية لدعوة الساق العارية المكشوفة... كلَّما اشتد المطر في الفيلم بدأت الفتاة تظهر أكثر، وبالتالي يشتد المطر في إب، وسقف السينما كان من الزنك، فتسمع ما يشبه صراخ السماء تحذيراً لما أنت مُقدم عليه. مطر سقف «سينما اللواء الأخضر» كان يتفاقم بلا رحمة، نذير مستميت يضغط على أعصابك بشدة، وأحدهم يضغط على قدمك وأنفاسه تضغط على كل ما كنت قد ذهبت إليه بشأن العودة إلى البيت. ذلك اليومُ كشف عن كبت إب الهائل، وما وصل إليه أمر الضواحي من حاجة لمشاهدة العُري ولو في حدوده الدنيا. كان الزحام شديداً، ممَّا حال دون تجوُّل شخصية شهيرة الصوت، وبلا اسم تقريباً: «آيسكريم، بارد والاًّ حليب». لم نسمعه ذلك اليوم. أظنه جلس في تلك المساحة الاسمنتية بين الشاشة ومقاعد الصف الأول. كانت تلك المساحة خاصة بظروف استثنائية من هذا النوع. شتائم من هنا وهناك، والقبائل البدائية تلاحق فتاة الفيلم، ولا يبدو من خلال ملابسها أو من خلال المطاردة أن ثمة عرضاً إباحياً للمطاردين، فهم كانوا صائعين للُقْمة وليس لامرأة، ذلك أن الفيلم في بدايته كان قد نبَّه لكونهم يأكلون البشر، غير أن أمل جائعي إب بقي معوِّلاً على أن يأخذ جوع تلك المجموعة البدائية الشكل الذي يريدونه ويمنحهم مراقبة الساق العارية يتم ملامستها، غير أن مجموعة الأمازون بدأت تُعرِّي تلك الفتاة بطريقة لا يمكن من خلالها تحديد ما إن كان ذلك للملامسة أم للالتهام. مع ظهور الجزء الأول من الساق توقف الفيلم، «قطعوه»، وتفاقم المطر، وصرخ ابن سائق البابور، ذو الندبة لحرق عقب سيجارة في عنقه، صرخة هائلة تفصح عن تاريخ مكبوت يحشرج: «يا اعواااااااااااااار!!». لم أظنه سيتعافى بعد تلك الصرخة

البتة. ولطالما توقف المطر الغاضب على سطح الزنك، مطمئناً لكون «الأعور» قد تمكن كعادته من الحؤول بين أخلاق إب وبين السقوط. أحد المسنين من قريتنا لوحظ على الباب بعمامته يفاوض ويتوعد عبدالكريم، إما أن يدخل لينادي صغيره الذي بجانبي، وإما أنه سيأتي بطقم عسكر. كان نداؤه ملحاً، ونحن بين أقدام الناس نفرض محاولة مستميتة لانتزاعنا من خطيئة ربَّما يسمح لها الأعور بالمرور أمامنا. كنا مضطربين. بدأ صوت بائع الآيسكريم يتردَّد، ممَّا يعني أن الكهرباء المضاءة سيطول أمرها. أخيراً سكن المطر، واختفى صوت جد الفتى الذي كان يحدِّق في وجهي كمن يتملَّى وجه الشيطان المضطر لصحبته.

في الأيام اللاحقة كنت أتلثَّم وأذهب إلى السينما، وأمشي أعرجَ وأنا أتقزَّم من شباك تذاكر السينما حتى لا يعرف أحدهم خطواتي. كان عبدالكريم يقطع نصف التذكرة ويبتسم لي بما يعني: «أنا أعرفك ولو تلثمت». لقيته مؤخراً في السوق القديم بإب وأنا أتناول الغداء. لقد أصبح قيِّم جامع لا يتبجَّح برحلته من الضلال إلى النور، فهذا هو المناخ، ثم إنه يذكر السينما بودٍّ ويرثي أيامها الأخيرة قبل أن تغلق، حينما لم يعد يأتي أكثر من خمسة عشر أو عشرين شخصاً يقومون بحركات مقززة. كانت السينما أيام زمان سينما أبطال الأفلام الهندية بالدرجة الأولى، أيام «السناسل»، «شاكا»، «الفراشة»(٢٧)... حينما كان الفيلم يقدم استعراضاً لحياة ترفض أن تبقى مذلة، حياة البطل ذي القوة والنوايا الطيبة. كانت حياة الهند وحالاتها، في ضياع الأمهات والأطفال، تخلق حالة رثاء وتضامناً إنسانياً حميماً تجاه الفقدان. كانت السينما تسريحات

---

(٢٧) أسماء مبتكرة لبعض أبطال هوليوود.

شعر ناعم، ولم تخلق مجموعات خيِّرة. غير أن إب بدون سينما، وبدون «سناسل» و«جيتا»... تصبح بالتالي بدون «الجاءة». تخيَّل مدينة ليس فيها حارة فَتْوَنَة ومِرْفَالة وصور مدهشة وعبد الكريم...! كان بقميص نصف كُمّ حتى في البرد، وكان يقوم بعمله بشخصية تحترم ما تقوم به، وليس وكأنه على باب حاكم أو باب أي شيء. كان كأنه على باب السينما. يظهر بين فينة وأخرى يطلُّ من الباب إلى القاعة محذراً بصوت واثق ضدَّ أي حالة ضجيج مفتعل. في بداية التسعينيات بدأت »سينما اللواء الأخضر» تكبح تدخلات »الأعور» في سير الأفلام ومفاجآتها، وشاهد الناس عُرياً كاملاً وغريباً. ها أنا لا أدري لِمَ أتورط في حالة دفاع وتوضيحات. أنا أكنُّ شيئاً ولا أدافع عن العُري، إذ إنه كان مربكاً تماماً لأناس مثلنا، يفاجأون باختبار صارم لكل ما تم تحذيرهم منه. وكذا في الزحام يفقد المرء أية قدرة على فهم العري أو التعامل معه. يجعلك تحدق ببلاهة كمن تقدم له عروض سرقة مغوية ومريبة وغير مأمونة البتة. الزحام يحاول الإساءة إليك والنيل من كلِّ ما هو عزيز وثمين في أعماقك، لكأنك أقل جدارة بأي تقدير تحاول انتزاعه من محيطك، إذ يأتي العري فتتقافز عمائم أسرتك وصورة الدرج في منبر مسجد قريتكم، وعبارة «وقف لله تعالى» وأواخر الآيات من نوع «السيئين»، بجمع المذكر السالم. وكانت «الخاسرين» أكثر إلحاحاً من غيرها. أغلقت سينما إب، ولم يحدث أن قال أحدهم عنها سينما، إذ إنها عُرفت دائماً بـ«السينما»، لكأنها كانت حاضرة فحسب بحالتها وهويتها النقيضة لما يفترض به أخلاق الناس. كانت تلعب دور الوعي الباطن لإب الجديدة وضواحيها، وحين وجد هذا الوعي طريقة أخرى للتعبير عن وجوده، أغلقوا السينما.

٦.

أشياء ملموسة عليك القيام بها

لا شيء في «مِجْران» القرية(٢٨) إلا العزّي ووجله الأثير. كان رجلاً شبقاً، يتوسل الرحمة من خذلان لا يكف عن ترصده. عواء كلب وحيد عجوز يحشرج على عتبة البوابة. جنٌّ يولمون ليل العزّي بعيون مشتعلة. دخل من باب الرعيان، وأمرية لا شك دافئةً كما كانت. ذات مغرب دخل عليها «زوجها»، الطفل الوسخ، فوضعت نصفه الأسفل في سروالها وارتعشت، بينما كانت نظرات البقرة تبارك مغرب السروال. أغمضت عينيها وقالت: «حيا الله من جاء يا استاذ!». لكأنهما مغمضتان منذ عشرين عاماً! نشوة خبيرة أغمضت عليها حتى لا تغري. هكذا اعتقد العزّي عندما صافحته أمرية بيدها المعروقة التي بدأت الخطوة الأولى في لعبة الخذلان. يدها معروقة، والعزّي لم يضع حساباً للشفقة في حلم الجسد المستعاد، غير أن رائحة الروث أعادته إلى مغربه القديم وبدأ وعيه الشبقي يربط بين رائحة الروث وهوسه الجنسي. وجسد أمرية وقف أمام حركة الزمن وضوء السراج يسرد فرضية العزّي بمهارة فائقة. تمكنت من تعرية أمرية، إلا من سروالها الأخضر. كانت تبحث عن ملاذ من عيون طفل وسخ يبدو أنه لم يكبر أبداً. «حياك الله يا أستاذ والله يجعلك قرة عين». وجفل العزّي أمام دعاء أمرية كتهديد مقدس لنواياه الآثمة، ناهيك عن احتمال أن يكون الدعاء مجرد توسلات امرأة

---

(٢٨) بيدر القرية.

مغرورة لنسيان خطيئة داهمتها من مغرب قديم. بدأ العزّي ينتفض تحت قبضة كونه «مجرد خطيئة»، وأمرية تنوء بمرارات لأجل فضيحة فم أبيها الذهب، وحشرجت: «إخوتي نبشوا القبر وما باقي معي إلا أنت!»، وبدأت تنشج أمام طفلٍ أخرق عينه اليسرى دائرية.

الأزقة تتلصص على خيبة عاثر تأخر كثيراً، وليس سوى: «ما باقي معي إلا أنت!»، والليل مشرع على ميلاد مثقف إنساني يخبط في العتمة بحثاً عن تفسير لقذارة القلب المولع بانتهاك اليتم. كان مجهداً لدرجة العزوف عن الإصغاء لخاتمة اعتيادية من قبيل: «ما معها إلا أنا! وأنا ماذا؟! أنا لا شيء!». كان ذلك ندم احتقره العزّي بصدق، فبدأت الكلمات تتردد هناك، وفي صدره كائن يشعر العزّي تجاهه بالرثاء. لم يولد مثقف على جثة طفل، فجثا على ركبة أمه بتشرد متكلف، دون أن يسأل عن حال البقرة كما اعتاد في أكثر عروضه العاطفية إثارةً للمرح. وعندما قبل عمامة أبيه أدرك للمرة الأولى كم أن أنفه ممشوق مثل حيد: «ليت لي مثل هذا الأنف!». أبدى فرحه الشديد بخراب مولد الكهرباء خاصتهم لينعم بدفء النوّارة، واقترح بشغف أن تسرد عليه الوالدة «سُمّأة أبو كلبة» دون أن يسمع دعوةً واحدة أو سؤالاً عن حاله، إذ كان متهافتاً على الإمساك بتلابيب الطفل الذي كانه يوماً، فيما كان إخوته المغتربون الثلاثة يعرّضون بخيبته من صورةٍ كبيرة معلقة في ركن المساء. «تحصل الأمهات على كينونتهن من بقائنا أطفالاً». وبين دعاء أمه لإخوته وتفسيره الأخرق لكينونة الأمومة، نجح أبو المغتربين في الإمساك بمحطته الأثيرة: مديحة المدفعي من لندن. حلف أنه تعشى في «إب» وكان يتلوى تحت شخصية طفل مستبدل يحاول سرقة مساء لا يخصه، وبدأ يجامل أبويه بصوت أظنه مثل أي محتال يتحدث من أذنيه.

كانا واجمين كما لم يفعلا يوماً. وتخلى له العجوز الوسيم عن الراديو بأسلوب لا يخلو من مجاملة ضيف. بهت ضوء النوارة فانسحب العزّي باحثاً في غرفة مراهقته عن بقايا ألفة ولو في عادة سرية. لا تزال النافذة الشمالية تقدم برداً كافياً لموقد من أجساد القرويات.

شحذ العزّي كل مهارته وأولم ببذخ. انتزع نساء الماضي من خريفهن. اقتحم المطابخ وتشبث بالدهاليز. سكب جرارهن في المعين وانتزع البعض من طفولة المرعى وشد الأخيرة من شعرها وحشرها عند بوابة خريف العمر. ارتجل طقساً جماعياً لم يلمح فيه طيفاً لـأمرية. بقي هناك مثخناً وملقى. رفع إصبعه وبدأ يكتب في العتمة: «أيها الطفل الذي كنته! كم أحب أذنيك الكبيرتين، ووجهك الملطخ بالطين والذهول القروي! عاد أبوك من الحجاز، أبي لم يعد إلا الآن! ونسيت أمي حكايا المساء فسرقني أبو كلبة، ربطني إلى ذيله وجرني إلى خوف يولد كل غروب، وقبل أن يموت علمني استثمار الفجيعة وحولني إلى كاتب. تشبثْ بأمك، وقبل أن تنام قص عليها حكايتي: اثنتا عشرة ساعة نوم بلا أحلام».

يفترض به أرق الخاسر ومكابدة ليلة مخيبة للآمال، وإن لم تكن خيبته مع أمرية قد فعلت شيئاً، فجدير بها أن تحيل برودة الأبوين ليل العائد الملقى إلى عرق وذهان وخلاصات روائية نابهة. لكنه نام! نام العزّي تماماً، حتى قبل أن يكمل جملته المريحة: «لم يعد لديّ ما أخسره».

ورق، ورق كثير بين غلافي مجلة مكتظة بورق مذكرات تخص العزّي، بقيت معه هكذا متمسكةً بإنسان لا يتمسك بشيء. كانت متعلقة به، وهو مصلح اجتماعي، وعسكري راتبه ضئيل، وعاشق لا يكبر. وعندما لفظه

باب أمرية، كان الورق متشبثاً بإبطه، وكانت الريح تصفع أطراف المذكرات، ولم يسمع شيئاً. ونام العزّي وبقيت مذكراته على سطح أول تلفزيون دخل القرية. كما تؤكد المذكرات، ثلثها طفولة مكتوبة على طريقة سارتر في «الكلمات»، وتكاد تخلو من الشطب والجمل الاعتراضية، ويبدأ الجزء الثاني هكذا: «كان أبي عاملاً في الحجاز...». السطر الأخير من الصفحة الأولى يعود لاحتمالات متعددة في فهم شخصية العزّي، تنتهي إلى أننا إزاء كائن متلبس: «كنت أخاف الجميع في المعلامة، وأغطسهم واحداً واحداً في السائلة، وكان الماء يشلني تماماً». ويمضي بعدها في سرقة طفولة سارتر بتهافت وجلاء، دون أن يغفل بالطبع السبب الوجيه في كونه مثل ساتر «يجهد في أن يروق». لم تلائمه عائلة سارتر، أمه صغيرة وعلاقتهما أقرب إلى تواطؤ صديقين. ربما راهن العزّي على تفهمه الشخصي في كونه ملتبساً حد الضرورة، منتهياً إلى طفولة مركبة من أجزاء لاحقها الألم. وبقي الأب هناك في الحجاز، وعوداً بأمانٍ وملابس ستهبط ذات مساء، مانحاً العشيات لأم تبرع في صناعة الخوف وتقاتل لأجل صغارها. دنيا متفاقمة بوجوه شيدها العزّي على صورته. شخصيات تصنع الخوف وتقدم الحماية في آن. كان واضحاً أن العزّي أكثر من طفل اخترع لأجله أكثر من أمّ وقرية، خيط دقيق يربط شخصيَّاته وأمهاته وقرائه، ذلك أننا أمام طفولةٍ مهددة تعلمت كيف تجابه كل تهديد بشخصية ملائمة. وجوه يعاد رسم ملامحها كلما اقتضت الضرورة. دنيا متقلبة بفضاءات تجهد في أن تكون ملائمة، فأصيبت القرية بانفصام، أزقتها محاضن دافئة، وأسوارها منتزعة من عوالم الجن. في عبارة طويلة كتب هكذا: «رفض حامس الجلوس في الساقية ليحجز الماء فاتهمته زوجة علي ناجي بأنه راضع

كلبة. رفعت ثوبي الذي لم يكن تحته شيء وجلست في الساقية، لم ألتفت لما تغسله المرأة في السد الصغير الذي أقمته لها، لكنني سمعت: وُلَيْد مطيع، الله يصلحك يا عزّي!». ثم يعيد كتابة الفقرة من أولها: «الساقية تتدفق وزوجة علي ناجي تلعن حامس على أنه رضع من الكلبة. لم يكن حامس ليأبه لشيء، وبقي متمسكاً برفضه الجلوس في الساقية كسد صغير تغسل فيه المرأة فضلات صغارها. رفعتُ ثوبي الذي لم يكن تحته شيء وجلست في الساقية. لا أدري متى فرغتْ من حاجتها للسد الصغير، غير أنني سمعتها تقول: لا تخلّي الزنّة حقك تقع في الماء، الله يصلحك يا عزي! وحين المغرب تجمعنا تحت الساقية لمشاهدة النسور تأكل بقرة علي ناجي أسفل الحيد. كنا نبحث عن حاج النسور، لكنها جميعاً كانت بمناقير متشابهة، لا نسر بمنقار طويل مخضب، كلها مخضبة، لماذا لم يأتِ حاج النسور؟! وصرخ حامس. شهد نجيب في بيت الشيخ أن زوجة علي ناجي دفعت حامس من حرف الحيد، وحلف عبدالرقيب أنه رآه يطحس بروث بقرة أثناء وقوفه على الحافة بحثاً عن حاج النسور بعد صلاة العشاء. كانت عينا حامس تحدقان من باب الجامع. قال إن الجن احتجزوه بين الصلاتين وأفلتوه عندما أذن عبدالحميد من رأس المنارة».

بعد ذلك أفرد العزّي خمس صفحات لألعاب طفولته وأبطاله الكرتونيين، وبدأ يكتب: بينما كان أطفال العالم الغربي يلعبون في «دزني لاند» يحلقون في الأفعوانيات ويتصادمون بالسيارات الكهربائية، كنا نلعب في القرية رجم حجار. لا يعود أحدنا إلا وجبهته مشوهة بورم من ذلك النوع الذي يقلل من ليونة الطفولة. إذا كان الطفل الغربي يعود من مدينة الملاهي بمخاوف ملهمة لها علاقة بالشغف والمغامرة الملائمة، فإن

أحدنا يعود بمخاوف أن يبدو ذليلاً أو أن يتعرض للعقاب. وتطور الأمر إلى دحرجـة إطارات «القلابات» الضخمة من أسفل العقبـة إلى أعلى نقطة فيها، لأجل متعة ترك الإطار الهائل يتدحرج خلال عشر ثوان إلى الأسفل مقابل مجهود عشر دقائق، ودفع الإطار إلى أعلى العقبة مجدداً ودحرجته، وهكذا... صخرة سيزيف! وما إن نسمع عن وجود «دركتل» في القرية المجاورة، حتى نتسابق في المخاليف([٢٩]) الطويلة لمراقبة آلة هائلة لا تكف عن الصرير ونقل الأحجـار والتراب. غالباً ما كان يترتب على أي نشاط من ذلك النوع عقاب أسري، رغم أن النشاط كان عقاباً بحد ذاته: جري لا يكاد ينقطع، ومنازلات غير عادلة. نلاحق «القلابات» لنركب بدون وجهة تخصنا، والسائق يلعن أباك وأمك وأنت ناشبٌ أصابعك مثل كلاليب كائن بدائي. نعود من أبعد قرية في المنطقة مشياً على الأقدام. كان حذائي ضيقاً على الدوام، ويصدر صوتاً مخزياً أثناء السير في المطر. وجاء التلفزيون! كنا نغادر يومياً إلى سوق المنطقة حيث «صندقة جميعة». نقف بإذلال لمتابعة «جراندايزر» وهو ينطلق ويدمر صحن الفضاء. لطالما امتعضت بيني وبين نفسي من تسمية «صحن»، إذ كانت أقل تقديراً مما يبدو عليه الوحش. وكان «القائد جندال» يطلق تهديداته كل يوم دون أن تفقد هذه التهديدات في وجداننا أي درجة من الجدية وإثارة مخاوفنا لأجل «جراندايزر»، رغم أن «القائد جندال» كان ينهزم كل يوم، ويتوعد في آخر كل حلقة، وكان وعيده هو الذي يتبقى دائماً. كان ذلك تأكيداً على إخفاق هذا العرض التلفزيوني في إقناعنا بحتمية انتصار الخير على الشر. في النهاية ينفجر

([٢٩]) الممرات.

صحن الفضاء، غير أنه يتم تقديمه بصورة ملائمة للقدرة على إلحاق الأذى، بينما كان «جراندايزر» أنيقاً، وكان ذلك هو ما يحببه إلى قلوبنا. وما إن يعلن «جراندايزر»: «الرزة المزدوجة» حتى يبدأ «جميعة» في إعلان تبرمه اليومي من مزاحمتنا له في مكان رزقه. يهتف بعد أن يصفق: «خلاص! خلونا نطلب الله!». تذكرك «الرزة المزدوجة» بالعقبة التي عليك تسلقها في طريق العودة. وبهذا المنحى الإجباري لإثبات نجاعة أسلحة بدائية تشبه «الفاروع» الذي يستخدمه أحد شقاة الحفر في قريتك. ولم يحدث يوماً أن تشاركت وأحد عقال قريتك في تلك اللحظة التي يقوم فيها «السيد فيتالس» بقص بنطلون «ريمي». ثمة ما كان يلقي الروع في طفولتنا على الدوام. قصة «ريمي» كانت مؤلمة وأكبر من قدرة طفولتنا على الاستيعاب، إذ لم يخطر لأحدنا أن «السيد فيتالس» كان رجلاً طيباً، فهو قد اشترى «ريمي» واشترى له بنطلونا قام بقصه حتى ما فوق الركبة. كان «السيد فيتالس» النموذج المقابل لما استقر في عواطفنا عن «أبو كلبة» الذي يسرق الأطفال. فمن منا كان ليدرك، بعاطفته البسيطة تلك، معنى السير برفقة فنان متجول صوته يحشرج كمن خبر الحياة أكثر مما ينبغي؟! كان صوته وهو يردد اسم «ريمي» قد خفف قليلاً من علاقته بـ«أبو كلبة». استقر «السيد فيتالس» على أنه ذلك الأب القاسي هائل الخطى الثقيلة، وأنت إلى جواره لا تملك في هذا العالم أحداً سواه، وبينكما القدر أكثر من العاطفة، وذلك النوع من المآسي التي يعتادها الوجدان الطفولي مع مرور الوقت. الوقت فحسب، هو ما كان ينقص «السيد فيتالس» ليملك الحق الكامل في اصطحاب «ريمي» إلى الأقاصي وبذلك النوع من امتلاك الحق الأخلاقي في إضمار الرحيل. رجل ليس «أبو كلبة»، غير أنه سيموت قريباً وصوته

مبحوح، ترك لـ«ريمي» عالماً هائلاً نراقبه ونجابهه سوياً من أقصى قرية في ريف «إب». ترك له كلاباً وقيثارة ومجموعة نصائح فيها لكنة «فيتالس» وهو ينطق اسم «ريمي» على ذلك النحو الذي يؤكد أن «ريمي» هذا سيتألم كثيراً، وسيجابه ما هو أكبر منه، ضمن فكرة أساسية هي الضياع في عالم قاس. لم يكن «ريمي» لينتصر في أي حلقة، كما هو الحال في «جراندايزر»، ولم يتطرق أحد في المسلسل إلى فكرة الخير والشر. كان اللون الداكن المصاحب لضياع «ريمي» ولصمت غضاضته إزاء عدوانية عالمه المفاجئ الصامت، ذلك اللون هو ما يجعل طفولتنا تختبر ذلك النوع من التسلية القسرية في متابعة حكاية تترك كل مساء أثراً مقبضاً، ليس تضامناً إنسانياً إزاء شجاعة الطفولة، بقدر ما هو اختبار قاس لشحنات ألم ملتبس أثناء تصاعد أبخرة غريبة من أزقة لندن القديمة. إنه ذلك النوع الخطر من تعريض الأطفال لفكرة الرضوخ النهائي لعرض واقعية الحياة من خلال الفن، الواقعية المعاشة كما هي، بلا مزايا للخير أو للشر. واجهات البنايات صامتة. وكان «ريمي» قد عاد للتو من مجابهة ألم ما تبقى من كلبه الذي أكلته الذئاب. ينتهي صف البنايات ذاك بمخفر للشرطة، وثمة شرطي صارم يصرخ في وجه «ريمي» على أنه لص، و«ريمي» يحدق بلا شجاعة ولا دموع، بينما يخبط الشرطي على الطاولة متوعداً: «لقد وقعت في قبضة شرطة لندن». رغم حصوله آخر الأمر على أُمّ بحجم «السيدة مليجم»، إلا أن سيرة حياة إنسان على شاكلة «ريمي» كانت أبعد ما تكون عن عروض التسلية أو التمثيليات الهادفة، إذ كان بعيداً عن أي عرض مشوق، بقدر ما كان قريباً من كل ما هو عميق وضائع في أعماقنا. كان عرضاً قريباً من وجلنا الملتبس. وفي كل يوم لم يفكر طفل

قروي منا في تخطي «ريمي» ولا جدوى الاستمرار، إذ لم يكن لأحدنا بعد المغرب سوى «ريمي».

٧.

استيقظ العزّي على رائحة «الملوَّح»[٣٠]، رائحة الأمومة. كان نشيطاً على غير عادته، وكانت مذكراته مستلقيةً على التلفزيون، راقه أن المذكرات بقيت ملازمة له بغير اهتمام يذكر. في الحمام تساءل العزّي: «ماذا لو دخل الوالد وفتح المذكرات؟! سيلعنني ويلعن أمرية!». رائحة المنشفة ملأت خيشوم العزّي بماضيه العطر، وقالت الأم: «ما شاء الله! وجهك راوي اليوم، أمس العشي وصلْكْ من صنعاء مُكسف»[٣١]. سلمت عليه وهو يخشخش الملوّح بلا بسملة، وتحدثت عن واحد مسكين نبش أولاده القبر بحثاً عن الذهب، وعن حاج طلع السوق ليأتي باللحمة والقات... أمعن العزّي في وجه أمه لكأنه ينظر في المرآة بعد ثلاثين عاماً، غير أن مسحة إيمان ورضا ستبقي هذا الوجه مستقبلاً معقولاً. السمن بلدي والعجوز الطيبة لم تفقد نكهتها بعد. الملوَّح الملوَّح والخوف الخوف. لماذا تخاف عليَّ ولا تخاف على إخوتي؟! غربتهم أكثر مدعاة لشعور كهذا. رأت تساؤلاته في نظراته الهاربة. «عادك بعيني جاهل يا عزّي! سع هذا بن أخوك»[٣٢]. لطالما حاول التخلص من هذا «الجاهل». كتب متحدياً السلطة والجاهل. ثم تفاقم الأمر: «قالوا يا ولدي إنك سبّيكْ الرئيس بالجريدة، وثلاث ليالي واني بالجُبَا أصيح: يا دافع

---

(٣٠) خبز مدهون بالسمن.

(٣١) وصلْك، تعني: وصلت؛ إذ تقوم الكاف في لهجات بعض مناطق اليمن مقام تاء الفاعل.

(٣٢) عموم الجملة معناه: مازلت طفلاً في نظري.

البلا»(٣٣). يبدو أنها لا تنوي النزول من الجُبا، ولن تطلقني من «المجهالة».

غير أنه استدفأ بأمومة لطالما جعلته يجفل. أكملت قائمة مخاوفها: «ويوم قتلوا هذا الرجال حق الاشتراكي بين الإصلاحيين أفتجُعكْ أزيد، قالوا كنْكْ جنبه!». والحقيقة أن العزّي كان ساعتها جنب التلفزيون بأحد فنادق «شارع تعز» يتناوم على «صمت الحملان»، الفيلم الأمريكي، وعندما فتح تلفونه السيار قرأ الرسالة: «قُتل جار الله عمر في مؤتمر الإصلاح بالصالة المغلقة، أينك يا عزي؟!». قرأ الرسالة للمرة الخامسة، بينما كان صوت الدكتور «هانيبال لكتر» يتردد بحياد: «كلاريس! هل كفت الحملان عن الثغاء؟!»، غير أنه لم يتذكر «صمت الحملان» أثناء سرد ما وصفه بجريمة الصالة المغلقة، مؤكداً لـ«موالعة»(٣٤) مقيل حامس أنه شعر بحرارة الرصاصة وهي تمر قريباً من ساعده الأيمن قبل أن تستقر في قلب الشهيد جار الله عمر. ورغم اعتراض حامس على استحقاق جار الله العلماني للقب شهيد، إلاَّ أن العزّي لم يلتفت للاعتراض، وإن كان قد أربكه قليلاً. لم يكن بحاجةٍ لارتجال قصة الاغتيال كما هي بعين قريبة. لم يكن عليه سوى تكرار القصة كما سمعها من صحفي كان قريباً من القاتل ورأى القتيل يجثو على ركبتيه ويحدق بذهول. وختم العزّي قصته هكذا: «كانت نظرات السعواني وهو يطلق الرصاص نسخة من نظراتك يا حامس عشية رجعتك من ضاحة

---

(٣٣) جُبا المنزل: سطحه.

(٣٤) الموالعة: المدمنون.

الجن قبل عشرين سنة!». أدرك كم كانت هذه الخاتمة بائسة، حتى أن حامس مط شفتيه:

- كلام برأس ماله يا أستاذ... والشهيد حقك كان شيطان سلّط الله عليه المجاهد السعواني يخرجه من رأس اليمن.

- أيوه، هو زميلك يا حامس، قالوا قدك تخرّج الجن من آذان النسوان، وكله جهاد!

رفع الإصلاحي إلى يمين والد العزّي يده مستأذناً:

- لو سمحتم يا إخوة، اسمح لي يا أستاذ، أنا كنت في القاعة وسمعت كلمة الحزب الاشتراكي التي ألقاها جار الله عمر، وفيها دعوة للخير والتآزر وآية قرآنية، أي مجاهد يقتل رجلا شهد له الناس بالإيمان وهم يرونه في المسجد؟! وبعدين لا يجوز يا حامس تقول عليه شيطان. اطلب له الرحمة، فقد أفضى إلى ما قدم... خلونا نخزن، معي ربطة قات بألف!

منذ وعى العزّي فضاء القات وهو يسمع علي يحيى يردد المداخلة ذاتها عند كل جدال. متكأه قريب من الباب. يجلس على ركبة ملساء ولا يكف عن تخليل أسنانه، مردداً بامتعاض: «خلونا نخزن!». تحذير نهائي للجلبة الفارغة، وإلاَّ فإن علي يحيى سيغادر المقيل ليكمل التخزينة في بيته، حيث يدفئ ركبته من نشوة زوجته المُشَقَّرة بالحُمْحُمْ(٣٥)، يتفاخذان

---

(٣٥) المَشْقُر: مجموعة من الغصون أو الورود العطرية (كأغصان «الحُمحُم») توضع على الرأس للزينة.

ويتبادلان القَطَل([36]) والعرق، ويخوض موالعة القرية سيناريو علي يحيى عن ظهر قلب. وأن يغادر علي يحيى فذلك يعني انهيار نكرة المقيل من أساسها. أدمنوه مع القات كثنائي نشوة لا يعمل أحدهما بغير الآخر. إنه على حد توصيف والد العزّي «يطلّع الطعم من قاعة الرِّجْل». لا أحد يدري من أين هبط علي يحيى قبل أربعين عاماً! غريب لم يتجاوز العاشرة. هبط على القرية أيام حصاد الذرة، يحمل الأكياس ويبادر لمساندة العجائز، وفؤاد القرية كان يبرع في سرد حكايا علي الذي هرب من زوجة أبيه في مكان بعيد. تبنّته القرية مستجيبة بشكل جماعي لنظراته الباحثة عن رعاية. يقال إن تحديقاته كانت لا تقاوم، وأن نشاطه المستميت في حمل أكياس ذرة أثقل من عمره الغض وإصراره على حمل محصول العجائز بدون مقابل، قد جعل منه النموذج الأفضل للابن الذي تحتاجه القرية كلها. غادر علي يحيى وبقي متكأه حضوراً هائلاً و«ملاخخ» مكسرة. «أربعين سنة وهو يتلخّخ ولا قلع ضرس، وانا أصغر منه وابصرْ لقفي يا عزّي، مثل بيت البيباب»([37]). هرب العزّي من رائحة فم الحاج مهدي إلى اقتراح بالغ البساطة: «خلي عيالك يشتروا لك طقم». وبالنسبة لرجل زار مكة سبعة مواسم، مثل الحاج مهدي، فتركيب طقم يعني رفضه لإرادة الله، والطقم «يخرّب الطعم» و«حق الله ثاني». وأردف الحاج مهدي بنكتة عن واحد طلب من ابنه الذي يعمل في صنعاء طقماً فأرسل له طقماً عسكرياً دفع أجرته عشرين ألف ريال، فضحك العزّي حتى أوشكت أضراسه على التساقط، إذ لا

([36]) أغصان القات الصغيرة المتفرعة من غصون كبيرة.

([37]) يتلخّخ أو يتلخلخ بالملخاخ أو الملخُخ: يخلل أسنانه. والبيباب أو البُبْبُب: الهدهد.

يليق بالأستاذ تجاهل دعابة حاج شغوف لم يكف عن ترديد: «احنا نفتخر بك بالتلفزيون». انصرف العزّي بعدها لاختراع جو من الألفة وكيف أن الشال الأخضر يجعل الحاج مهدي أقرب إلى «بابا نويل». لم يرقه التشبيه أبداً؛ «هذاك نصراني وهذا حاج». ثم إن «بابا نويل» لم يكن ليسكب على شاله زجاجة عطر «أبو حنش»، ثم إنه لا يرتدي شالاً، وهكذا مقاربات ومفارقات غرق فيها العزّي، ناهيك عن أن الحاج مهدي كان قد احتضن رأس العزّي وألصق أنفه بالشال الأخضر عقب صلاة الجمعة ولم يفلته إلا وقد تأكد أن الأستاذ قد استنشق نصف عطر الشال. وعن طريق التخاطر قال الحاج مهدي: «حُبّب إليَّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة. قدّم النبي صلى الله عليه وسلم العطر على النسوان!». فغمغم العزّي: «ما كانش النبي يتعطر بأبو حنش!»، وبدأ يرثي جيوبه الأنفية على يقين من أن عطر الحاج مهدي قد أعطبها تماماً. كان الحاج مهدي يستخدم يده اليسرى التي هزها فيما يشبه التحية والإجلال للنبي وهو يستشهد بحبه للعطور، بينما كان صاحب البيت يمط شفتيه على سبيل الفهم، وتصل المعاني والنكات ودلالة الحكاية بغير ما جهد يذكر، بخلاف العناء الذي ينهك المثقفين في سعيهم للتواصل. انسحب العزّي عند هذا الإدراك لمستوى توصل القرويين إلى منولوج مقارنة ورثاء لتحاذق المثقفين، ولم يعد يسمع أحداً غير لكنته. كان المقيل تحت رحمة التداعيات. عبده الشوحطة يلعن العطر كونه «يخرب طعم القات»، وحامس يمتدح عطره الخاص الذي ركبه من عطور متنوعة، منتهياً إلى تركيبة رهيبة «تدي الجن مربطين»، ليرد عليه الشوحطة: «البِيَس تدي الجن مربطين، مُش حقك العطر اللي يجلس فوق الزنة مثل من تفَّل بصدرك شمَّة... أنا أركب

حقك الجن!»([٣٨]). انتفض حامس من فورة غضب بدت مفتعلةً تماماً حتى أنه خبط جبهته على «ثلاجة الشاهي»، وهز الشوحطة رأسه ثم بصق في المتفل: «خلّانا نخزن!». أمسك حامس بمقبض الجنبية وتداخلت الأصوات: «ارتأس على الجنبية؟! ياعيباه! تهددني في بيتك؟!». بقي العزّي يحدق ببلاهة في وجه أبيه وكأنه يطلب إليه التدخل. وبآية قرانيه تمكن الإصلاحي من تقديم المبرر الذي انتظره حامس للتخلص من غضبته المرهقة. كان جبينه الناصع يتصبب عرقاً وحياءً من الأستاذ. وبقبلة متبادلة على الجبين، اصطلح حامس والشوحطة، فيما ألقى الحاج مهدي باللائمة على «شيطان المغرب». ومن الغرفة المجاورة بدأ صوت الإصلاحي ينتزع قلب العزّي من لا أمانه العتيد: «وإذا سألك عبادي عنى فإني قريب». خنقته العبرات كما يحدث دائماً عندما يناديه ملاذ. كان قد تحجج بحقه في تأخير صلاة المغرب ليجمعها بالعشاء، لكونه على سفر مؤجل، لكن النداء لم يكن ليقاوم، ولو تشبثت به نشوة القات التي انفجرت بعد طول انتظار. في الركعة الثانية قرأ الإمام: «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله». لم يتمكن من مقاومة شجى القرآن، فصلى معهم مسلّماً كيانه، هكذا، لفرط حاجته إلى قوة مطلقة تتكفل بتواجده تلك اللحظات. كانت هواجسه التفسيرية لتردداته، على غرار التراجع عن تأجيل الصلاة، تشغله بوهن، إذ كان عليه دائماً إيجاد صيغة حاذقة منتزعة في الغالب من خاتمة تفسير مرح لفنان أو فيلسوف كبير تردد بشأن تصرف ما، ثم قدم للعالم مقولة تمنح الإنسان الحق في التردد. لكن

(٣٨) الزَّنَّة: ثياب. تفَّل: بصق. الشَّمَّة: مسحوق تبغ يوضع في الفم ثم يُبصق عند اكتمال الكيف.

هذه الجملة لم تحتج من العزّي إلى بحث، إذ كانت جاهزة وفي المتناول من كثرة ما استخدمها: من حق الإنسان التناقض مع نفسه. لقد صلى العزّي ملموماً بدرجة كافية، وكان حضور الله قد طغى تماماً على حضور الفلسفة ومقولات الكبار.

لمح وجهه بعد الصلاة في مرآة معلقة قرب الباب. كان جذاباً، يحدق بعيون متعبة مثل مغرم فاتن. حين استعاد متكأه اكتشف التناسق المهيب بين طرف كُمّ ثوبه الأبيض مع الكوت الأسود، بإيحاء قروي مميز يشي بكثافة الحضور العائلي. شعر تلك اللحظة إلى أي مدى هو خالٌ كريم وابن عم. وكان «المقيّلون» لحظتها قريبين من القلب، يرون تماماً تناسق مظهره، هذا النوع من هبات الحياة على مدى نصف ساعة من التواجد وفقاً لصورة مرغوبة تستظهرها تلك الدقائق وتحملها من بين مجمل تصورات الإنسان لنفسه مع الآخرين. أدرك ساعتها كم أنه قد تعب من شخصية اللا منتمي، بالبنطلون الجينز وفانيللة «تي شرت». يدعي التبول على رأس العالم أثناء عودته المتأخرة إلى غرفة مستأجرة حاملاً السندوتشات ودورية ثقافية. هنا سأعود إلى بيتنا، حقّنا، ولم أعد وجودياً؛ لأنني متواجد كفاية. يفترض بخط سير وجود العزّي في ذلك المساء الامتداد وفقاً لخارطته النفسية التي شكلت حضوره العائلي المنتمي، كأن يستأذن لزيارة عمته وإمضاء ما تبقى من «التخزينة» إلى جوار ركبة أمه يخبرها بموافقته أخيراً على أن يتزوج. غير أن هذا تم استبعاده، إذ نفد القات وعليه التعامل ووجوب حصوله على الأشياء الناقصة، فتلك أولوية بالنسبة لرجل يولي مزاجه الأهمية القصوى. طلب من صاحب البيت «مقطب» داكناً من ذلك النوع الذي يرتديه مسلحو القبائل في نقاط التقطع القبلية. أدرك صاحبه دافع الأستاذ الصحفي لطلب

رداء كهذا؛ المغامرة القديمة ذاتها كلما انتهى القات في مساءات المراهقة، يرتدون «مقاطب» داكنة ويتسللون لسرقة القات من «شِعبة» علي ناجي.

كان المقيل قد فرغ إلا من الثلاثة القدامى، العزّي وعبده وحامس. بدأ الأخير مرافعة يائسة كمحاولة أخيرة لردع العزّي عن ارتكاب حماقة: «تمام يا أستاذنا الكبير، وافرض مسكوك ووقعت فضيحة! أيش يقولوا الناس؟! صحفي شغلنا كتابة عن سرقة المال العام وامتسك يسرق قات!». ثمة سبب أخير وهو المهم للتراجع عن مجازفة كهذه، وهو أن علي ناجي مات و«الشعبة» أصبحت لابن مانع، الذي بسط عليها بقوة السلاح. كان يراهن على قوة السبب الأخير بمجرد أن ذكر اسم صاحب «الشعبة» الجديد، رجل من أصول قبلية، وكلما حدثت مشكلة استنفر قبيلته الأم واستخدم مقاتليها لترويع الناس هنا، ويعود مقاتلوه إلى «اليمن الأعلى» تاركين لابن مانع حضورهم العنيف الذي يحوله إلى استحواذ ممنهج ضمن تواجد نزق يشي بالتحذير المتعالي، ضمن عملية انتقام طويلة المدى من المكان الذي لم يقبله، رغم مضي أكثر من قرن على وصول عائلته أثناء ما هرب الجد المؤسس من ثأر في منطقته. برتوكول متداول يرافق الطارئ القبلي الذي يحكي قصة كيف أنه قتل شخصاً أو أكثر، وفر إلى إب. كان هذا كافياً ليتمسك العزّي بقراره أكثر ضمن ما اعتبره مساهمة شخصية متواضعة لإحداث توازن ضئيل في نزق الانثروبولوجيا وربما الاثنوغرافيا. فكر جدياً في أي المصطلحين أقرب علمياً لعملية نهب بن مانع، مثبتاً كلمة «نهب» دون غيرها، ليس تملصاً من كلمة «سرقة»، ولكنها الكلمة المناسبة في حوار أهل إب و«النقائل». غمغم: «ليتذوقوا طعم التعرض للنهب ليلة واحدة عليهم

إمضاءها كمنهوبين». اعتذر حامس عن المشاركة في هذه العملية وهو يضحك ويردد: «والله انك مجنون يا استاد!»، هكذا! «استاد». أما سبب عدم مشاركته، فقد أرجعه لإصابته مؤخراً بالعشى الليلي. «كبرنا يا أستاد!»، وقدم له الكلاشنكوف على أن الخزينة مليئة بثلاثين طلقة، وحبة في الحلق، بينما كان الشوحطة وبلا مبالغة يقول: «بعدك يا استاد! بحر بحر، جو جو». «مقطب» بنّي وقميص نص كُم كاكي، ووجد جسده يرتج على إيقاع مشية ليلية متخيلة لأحد فتيان الجبهة في حرب المناطق الوسطى. كانت خزينة الكلاشنكوف تدق على الحافة الخلفية للمسدس الذي اكتشف العزّي وجوده على خاصرته تلك اللحظة. كان المسدس غائباً طوال اليوم، وحضر عندما أفصح عن هويته العضوية في مساء النهب والخطوات الجسورة. لم يلتفت نحو بيوت القرية ليتأكد من آخر ضوء في آخر نافذة، إذ لم يعد يرى إلا وجه بن مانع، ولا شيء غير صمت ما قبل انفجار لم يكن ليخطر على بال ليلة من ليالي قرى المولدات التي تصمت مرة واحدة عند الحادية عشرة تماماً. عبده يمشي منصرفاً لأدواته كأي سارق محترف، لا مشاعر حماسة ولا حذر على الأستاذ الناعم في ليلة على هذا القدر من الجدية. كان عبده ينسل ويناغم التضاريس في العتمة، وبدون كلمة واحدة ترك العزّي يتمترس عند الصخرة الفاصلة بين الطريق وشعبة القات، وانسل بآلية من لا يملك الوقت الكافي للقيام بعمل متكرر وخطر. في الجهة المقابلة كان بيت بن مانع ومحراس قاته أسفل البيت، ويمكن التعرف عليهما من ضوء مصباح يدوي يتجول بين البيت والمحراس، والليل يدرك أن هذا إجراء تقليدي لرجل مطمئن لاستعصائه على النهب. التمترس خلف الصخرة ووضعية الكلاشنكوف والعتمة وقوة الكراهية الشافية ضغطت كلها مزيداً

من طاقة العنف في عروق العزّي. لم يتمكن من الانتظار أكثر. كان قد مضى ما يقرب من عشرين دقيقة وهو يفرك مشاف الكلاشنكوف ويترك لوجوه زملائه الصحفيين التوارد بفوضى المتزاحمين على إبداء دهشتهم. تركهم العزّي يندهشون براحتهم كصحفيين، وبدأ يطلق النار كرجل في حالة انتشاء وضغينة. لم يسمع شيئاً بعد صرخة بندقيته لثلاثين ثانية، ثم بدأ الرد. زخات من أسلحة من نوع سلاحه ذاته تنتهي بدوي «جرمل» مهيب. أدرك أنه «جرمل» النظامي، الذي كان أول عسكري من المنطقة وخدم في الفوج الأول مع البدر وعاد إلى قريته بعد الثورة دون أن يحدد ما إن كان قد قاتل في صفوف الجمهوريين أو الملكيين. يتحدث بلهجة القبائل ويتقرب من أسرة بن مانع محاولاً الحياة في هوية بديلة تتحدث من فوهة الجرمل. لم يخطر له الشوحطة إطلاقاً، ولم يدر كيف ناداه الأخير من تحت الصخرة محشرجاً: «منو بدأ القارح، انته وإلا هم؟ طفّي الولاعة، لا تفضحنا يا عزي! القات حلا صدقني انته تبصره بالسمرة، روس مغارس، قات خمر، غلة سنة، طفئ الولاعة أنا عند الله وعندك». كان العزّي يختبر استحقاق المجازفة وتأكيد وجوده الطازج اللا مبالي بالولاعة يومض في أغصان النشوة المنهوبة. القات جميل «وحالم» ومنتزع مثل ابنة شيخ لدنة متكبرة تؤجج ليل العاشق المدهش. أشعل ولاعته ليتأكد من أن القات ابنة شيخ جميلة منهوبة، فرأى ملامح راعي البقر الأمريكي في إعلان المارلبورو تتماوج على وجهه، فامتعض من الفكرة، إذ لا تزال هويته الغضة تحت تهديد أحلام مراهقته الساذجة. قال لنفسه بلهجة قاطعة: «ماناش راعي بقر أمريكي، أنا العزّي، مقطبه للركبة، يسهر الليل منتشي، يعمل اللي براسه ولا هو داري من كم! أنا صاحب أمرية، الفحل الوفي، جبهتي تعرق وأنا راجع

من شعبة القات والرصاص برجاله مفرطة. بعدي يا شوحطة!». لا يدري العزّي شيئاً عن «سر الفقدان»، اللعبة القذرة ذاتها. ما إن يولد العزّي حتى يبدأ مفاوضات شاقة مع الموت. ها هو راعي البقر الأمريكي يقفز من إعلان المارلبورو مقترحاً مبارزة فيلم للأجدر باحتلال عزّي يشترط الجسارة. هكذا تومض الهويات المتطفلة دائماً. تمكن في ليل القات المدهش من سحب مسدسه الروسي، وأزاح راعي البقر بمجهود بدا له أقل بكثير مما يبذله عادةً في معارك الهويات المضنية. «فارس» النشوة على مرمى كلاشنكوف من مسمر عابس. لا يزال صاحبنا يمضغ انتظار الرفاق على لهيب مصباح الغاز. هذا هو الضوء الحميم، وتلك نوافذ السمرة الأصلية، وماذا لو فقد القات طعمه؟! وانثنى العزّي للخوض في مطارحات الخسارة، وكيف أن الوعي المبكر بالخذلان شرط للإبداع وفقاً لأحلام مستغانمي، غير أنه لاك مضغة القات بحيوية أزاحت رواية مستغانمي.

في طريق العودة شم رائحة خوف عبده وهو يلح على السؤال ذاته ويمضغ ما تبقى من ريقه محاولاً تليين فمه الناشف. آلمه ما يشبه العتب الصامت من عبده تجاه اللامبالاة لسلامة صاحبه الطيب. كان صوت الرصاص في ليل بن مانع الذي تركوه خلفهم لا يزال يطلق بسخاء، بينما جلسا في مِجْران القرية. وكان العزّي قد رضي وهو يتعرق ويلهث ويقسم لعبده أنه الصاحب الذي تبقى له في هذه الدنيا، متخلياً له عن القات المنهوب، مؤكداً أنه قد اكتفى. غبطة ضارية أشعلت العزّي وهو يعطف النقيل ويتخيل صور الشوحطة على الصفحات الأولى في مجابهةٍ مع بن مانع الشرير ورهطه الجنرالات القادمين من بلاد الجفاف والقسوة. ستكون المهمة الأخيرة للصحافة في مباراة اعتزال الصحفي

لأجل المغلوبين ونموذجهم الأليم الأعزل. الشوحطة أعزل، أبناء عمومته مقاوتة وسائقو شاحنات ومدرس، وبن مانع مدجج بتاريخه المروع وحدقاته الهائلة. استحضر العزّي ساعتها تلك الملامح القاطعة: أنفاً معقوفاً، وعينين داميتين، حضوراً هائلاً متوعداً ضارباً في الاستحواذ. هذا الرجل يحصل على ما يريد ويقول ما يكفي لانتظار العواقب. صوته فولاذ بلا تأويلات. لم يجفل العزّي أثناء نذر المجابهة في المقيل، غير أنه توجس قليلاً عندما رفع يده في «المفرق» صارخاً: إب. ستكون التقارير هكذا: في إب الشوحطة وحيد بين يدي القبيلي والجنرال. اخترع له قصة حياة جديدة بالاهتمام المأساوي، وأمّاً تعاني روماتيزم القلب، أحد عشر طفلاً، وظهراً مكشوفاً بلا حزب ولا قبيلة. ردد متوعداً: «سأفتح ملفاتهم، من نهب الأراضي إلى مساندة قطاع الطرق وبيع الكُدَم والفول للتجار، رواتب الجنود المقضومة وكشوفات الجنود الوهميين، الدكتور الذي سحقوه بأعقاب البنادق، الرعوي الذي تعفن في زنازينهم الخاصة، مدراء العموم المذعورين، الإتاوات، نزق الانتخابات... لا إحالات تاريخية، ولا استخلاصات انثروبولوجية. ستكون قضية رأي عام وصوراً وبيانات مؤثرة تنتهي إلى ملفات المنظمات المحلية والتقرير السنوي للأمم المتحدة، كلمات كلمات ونسخ معدلة من بيانات تاريخية، لا أحقاد مناطقية ولا أحكام مسبقة، وما أردناها مناطقية ولكن هذا هو الحال، إنهم يعبثون بمواطن الدرجة الثانية». واغتبط العزّي بالجملة الأخيرة وهو يترجل أمام بوابة الأمن المركزي.

لا يذكر العزّي من الفتى الذي حاول الفرار من فوق السور. ربما يكون هو، انطلاقاً من فرضية بحثه الدائم عن مفر، أو أنه سمع الحكايا من زميل تورط في معسكر الصيف ما بين ثالث إعدادي وأول ثانوي! كانت

البدلة الميري جديرة بالشغف، لكنها فقدت حماستها في اليوم الثاني. الطوابير امتحان أليم لرجولة إجبارية لا يكترث لها أحد. ثم إن فول الأمن المركزي محبط للغاية وينتهي أحدنا إلى كراهية الذات المنتفخة أرقاً في ليل الزحام الضيق، ناهيك عن اكتشاف رهاب الخوف من الاعتداء الجسدي. من هنا بالتأكيد، تصاعدت حكاية محاولاتي الفرار، وسقطت بين يدي تحذير طلقات نوبة الحراسة. فكر العزّي في ذلك كله أثناء طلبه موعداً مع المسؤول، ونسي بطاقته الصحفية الدولية ضمن تقليد عريق لإبداء اللامبالاة. بين البوابة وسارية العلم مائتا متر على وجه التقريب، والحكايا والأكاذيب المسلية. هنا اكتشف الطلبة مخاوفهم ونقاط ضعفهم وتمتعهم بروح الدعابة. هنا داروا حول العالم بحثاً عن رجولتهم فاكتشفوا مزايا المراهقة والثمن الفادح لروح المجازفة في دنيا لا تكف عن نصب الفخاخ. لم يصمد أحد حتى خط النهاية، باستثناء عبدالرحيم، الذي اكتشف أثناء بحثه عن رجولته، في معسكر الأمن المركزي، خلاصه من الجبر. لطالما لعن عبدالرحيم الجبر. وأن يحاول المرء فهم شخابيط ما أنزل الله بها من سلطان وأمعاؤه فارغة من الصبوح، فذلك ضرب من البلاهة، لذلك ترك عبدالرحيم المعادلة ناقصة ونشب أظافره في ساحة المعسكر. أصبح جندياً مدهشاً، براتب وبزة عسكرية حرص دائماً على أن تُظهره مثل جنرال سوفييتي يقود العرض في «الميدان الأحمر». لا أحد يدري كيف، غير أنه وجد أخيراً الطريقة المثلى للتعبير عن قوامه المذهل. بنات القرية بدائيات، يقعن في غرام الوجه بغيرما التفات للقوام. وعبدالرحيم دميم بعضلات أسطورية وخط جميل، يكتب رسائل زوجات المغتربين، ويحرقها من الأطراف تعبيراً عن اللوعة. كانت مبادرة مذهلة جعلت منه «كاتب نسوان المغتربين»

الوحيد. كن وحيدات، وعبدالرحيم ثرثاراً ونزيهاً، فتسربت لياليهن الخفية من أصابع ابن الأرملة. تداول الفتيان حكايا نزوات نساء القرية، وهي ما كان يطلق عليه عبدالرحيم «سر» يفضي به لأكثر من عشرة زملاء، مردداً: «هذا سر! والله لو تقول لأحد لابطّل صُحَبَك! والله ليقتلوني!»، فبطّلت النسوان صحبته.

سمع العزّي أن عبدالرحيم أصبح كاتب المعاشات، يصرف رواتب أكثر من ألف جندي، يزور القرية بسيارة «جيب» وقات كثير. أين أنت الآن يا كاتب الرسائل؟! كان المعسكر مشوشاً بذكرى وجوه ليس لها ملامح. وكان الضابط المسؤول، برتبة رائد، يبدو أنه قضى ليلة سيئة. قرأ مقالات كثيرة. أحب كتابات العزّي، وحذّره من الجرأة الزائدة، مؤكداً أن الأمن المركزي لم يعد لديه زنزانة للمواطنين. اقترح جهتين مبدئياً: الأمن المركزي والنجدة، وطريقة واحدة لكتابة أكثر الأفكار عمقاً وخطورة بأسلوب بسيط أطلق عليه «السهل الممتنع».

كانت بدايةً عادية في جلسة تفاوض بين العزّي ونائب مدير الأمن: «أنا ما أخافش من الصحافة». ونشب العزّي مخالبه في مخاوف العميد، ابتداءً من معرفته باسم الجد السادس الذي يربط العميد وبن مانع. لم يحرص على دماثة ولا تذاكٍ، أرغى في وجه العميد وأزبد، رافعاً إصبع تحذير متهكمة وصلبة: «سأفعل... وأفعل... وأعرف... وأعرف... وسأفتح ملفاتك يا فندم وزنازينك الخاصة...». لاذ العميد بالصمت، فتمادى العزّي حد التهديد باستخدام القوة رداً على اعتداء شخصي تمثل

في استخدام جهاز الأمن في مسألة شخصيَّة يلعب فيها العميد غريماً لا يمثل غير العميد. وغادر مكتبه ظافراً وعلى استعداد كامل لمجابهة العميد بالمسدس. «قتل، جن، دمّ...! فليذهب العالم إلى الجحيم! لم يعد هناك ما أخشاه»، ودس في جيب أول ضابط صادفه في الممر ألف ريال مقابل رؤية صاحبه. لامس أصابعه الغليظة وحدق في ملامحه وهي تختلج وراء القضبان. لم يحاول طمأنته، ولا يجدر بالرجل أن يخاف شيئاً. «سيأتيك اللحم والقات، وأقسم بالله لأشهد عليك بنفسي لو تخاف، خزّن واعرق وخليها تحبل بربح!». لمح عبدالرحيم في آخر الممر؛ لا يزال حركةً وجلة ويطوح يديه في الفراغ. ما الذي يلاحق عبدالرحيم ليطوح هكذا مفصحاً عن نفسية المتورط في واجبات غير متفهمة؟! «يا كاتب الرسائل المحرقة!»، فدار حول نفسه باحثاً عن مصدر الصوت. هرول وعانق جاحظ العينين مأخوذاً بأشياء كثيرة استبعد العزّي أن يكون لقاء زميل قديم أحدها. لا يزال يطوّح ويتساءل عن الورطة التي داهمته هذه المرة في عرينه؛ صحافة وضباط كبار! واقترح بقاء الأشياء لما هو أكثر أهمية، على أن يتحمل إنهاء الأمر بهدوء. في لهجته خبرة وجلة وإصرار مَن تورط في واجب بالخروج بأقل الأضرار. لم يفصح

عن طبيعة مخاوفه، ملقياً باللائمة على عاتق «أيام ملعونة بنت ملعون» ينبغي للإنسان التحلي بالحذر والتعقل لتجاوز أشراكها المميتة. لم يسأل عن حال العزّي، ولا عن تفاصيل المشكلة مع بن مانع. كان واضحاً أنه قد كوّن صورة فورية وسلسلة إجراءات وضعها على هيئة مقترحات تدور جميعها حول مبدأ التعقل. شعر العزّي أن عبدالرحيم قد تورط كعادته؛ ولكن هذه المرة مع مجموعة لإدارة المصالح العسكرية، ولا شك أن العميد عنصر فاعل في المجموعة. أصبح عبدالرحيم إذن جزءاً من مافيا الأراضي والرواتب والمؤن العسكرية، ولا يزال ثرثاراً نزيهاً يخبط الشوارع الجانبية بلا هدى، ويؤكد للعزي ما كان قد ذهب إليه مفصحاً عن كل شيء على سبيل التحذير. «هؤلاء ناس على استعداد لقتل أي واحد يستفزهم أو يهدد مصالحهم، ناس داريين أنه لا دولة ولا هم يحزنون». كان عبدالرحيم يذكّر دائماً بأهمية استبعاد الصحافة من الموضوع نهائياً، حتى لا تتفاقم الأمور. ضغط على مكابح السيارة بعنف وحشرج: «أرجوك! كن متفهّماً! سأدفع ثمناً فادحاً، باعتباري الحمار القصير!». حاول العزّي أشياء كثيرة، دون جدوى. لم تسكن روح عبدالرحيم، ولم يسمع شيئاً من إسهاب العزّي في توزيع المسؤوليات

واقتراح المستهدفين من تدخل محتمل للصحافة. «وما شأنك أنت باعتقال مواطن مسكين بطريقة همجية وفي زنزانة غير قانونية؟! إلاَّ إذا اتهموك بزمالتنا القديمة! أعرفك يا عزي، وقرأت مقالاتك المتهورة. ستدخل من اعتقال الشوحطة إلى ما تطلق عليه مافيا الأراضي في إب. تعرف أشياء خطيرة، ويعرفون أننا من قرية واحدة! اهدأ لأجل صاحبك! ألسنا أصحاباً؟! ولك وجهي يطلقوا الشوحطة قبل المغرب!».

كان رجلاً وابن أرملة عريقاً، وإن حاول إخفاء هويته خلف الشال الصوف والجيب العسكرية ذات الانعطافات المهيبة. النبرات ذاتها. عينان زائغتان في انتظار كارثة: «والله ليقتلوني!». هناك دائماً من سيقتل عبدالرحيم. كاتب رسائل نسوان محرومات، أو كاتب معاشات جنود محرومين أيضاً! لطالما اختبأ عبدالرحيم وسرق شيئاً من دنياه في العتمة. كان العزّي قد وشى بعبدالرحيم بنفسية شاب نشأ في عبادة الله أثناء خاطرة عن «رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله». هو لم يفصح عن اسم عبدالرحيم، غير أن الجميع يعرفون من يكتب الرسائل ويحرق أطرافها. انطلق العزّي في تبرير تلك الدناءة من ألا شيء شخصياً، وأنه ليس حاسداً لابن الأرملة. وفكر لوهلة في احتلال

عالم عبدالرحيم المسائي، انطلاقاً من أن الثقة أولى مزايا توبته الطازجة. بلغ جهوداً مضنية في دفع وساوس الشيطان وهو يوسوس: «قدمت ابن الأرملة قرباناً لعلاقتك بالله يا عزي!». ستكون علاقة سيئة، وعي كاتب الرسائل يفصح عن مخاوف كاتب المعاشات. لقد علم بالتأكيد أن العزّي هو من باغته في عتمة ملذات الماضي ووضعه تحت رعب الضوء، تلك الملذات والعزاءات اللافحة، همْس محرومة تفضي بكلمات محشرجة في أذن ابن أرملة يكتب على ضوء فانوس محرض. لا يهم إلى أين وصل عبدالرحيم في دهاليز تلك المساءات، فربما توقف قبل خط النهاية، لكنه وصل إلى جوار الفانوس بالتأكيد وشعر بأنفاس نسوان مغتربين لم يهمسن منذ سنين!

أدرك العزّي أثناء مفاوضات السيارة أن عبدالرحيم يتلوى تحت رعب الضوء القديم، وأن وعيداً يحتدم خلف توسلاته، وعيد رجل صوته يتهدج، توسلات من لديه استعداد لفعل أي شيء حتى لا يخسر مرة ثانية. لم يندم العزّي لأجل خيانة الماضي، ولو كان عبدالرحيم قد تاب إلى الله تلك الأيام، وكان العزّي متلصص ملذات، لفضحه عبدالرحيم بحماسة من يحرق المراحل في طريقه إلى الجنة. هذه هي الحياة،

وأشياء من قبيل الجملة الأخيرة ضمن منولوج متهكم يتجاوز به العزّي دناءات دنيا تضع الناس في مجابهة تفتقر إلى النزاهة. كان عليه أيامها العودة إلى الله والتوبة مما لا يذكره، ذلك أنهم يحترمون الناشئ في عبادة الله، ويحوّلون النقود لعائلاتهم عن طريقه. الثقة رأس مال هبط في جَيب العزّي في أقل من شهرين من صلاة الفجر حاضر. تورط في الأمر أكثر، وكان يتلوى تحت همسات الشيطان وشائعات الرسائل الغرامية التي كان يفتقدها في أعماقه. توقفت الفتيات عن مغازلة مؤذن الفجر، خسر جذل البنطلون الجينز وقصائد نزار قباني وغالبية أصدقائه. كان زماناً محترماً بقسوة التدين والوقار الأليم. أثناء تحول الأصدقاء أهدافاً للاستقطاب في مجابهة طويلة المدى بين ورطة محترمة ومراهقة مدانة، وحده عبدالرحيم من تخلى عن أغاني عبدالحليم حافظ وتاب بلا شروط، تاب عن أشياء كثيرة، وعن كل شيء، تفرغ لترديد مقولات العزّي، وأصبح ذيلاً لجلاده. يحدث هذا كثيراً، وقيل عنه روايات ودراسات ومقاربات في علم النفس والأنثروبولوجيا. هناك دائماً حيوات صغيرة تمتحن بقسوة. هناك دائماً ضحية وجلاد، ونهاية تقليدية تصبح فيها الضحية ذيلاً للجلاد. هناك أمهات يلدن ضحايا وجلادين في آن... لن

تقدم الحياة سبباً وجيهاً لإنجاز عبدالرحيم وعزّي لم يعد بوسعهما فعل شيء بحقيقة أدركاها بعد فوات الأوان، باحثين في الوقت ذاته عن وهم جديد. كأنَّ العزّي كان بحاجة لهذا الموقف في السيارة ليجد تفسيراً لدوافعه العدوانية التي ترسبت من توبة المراهق الذي كانه. لم يشعر بالذنب لأجل ما فعله بابن الأرملة، ذنب زمن لا يجدر بالعزّي تحمل تبعاته. وأي قلب يكفي لتحمل ذنوب دنيا تضع الناس على طاولات تجارب تفتقر للعلم؟! يعلم أن الصدفة أعادته إلى الله، وفضحت عبدالرحيم وألقت به على خط نهاية الأمن المركزي، ولو لم يكن إلا هذا الإدمان على الندم مقابل خلاص عبدالرحيم من ندامات كثيرة؛ على أن ندامات جمع ندم، وعلى أن الندم شأن آخر غير الذنب. هاهو عبدالرحيم يحصل على دنيا غنية برزم نقدية من فئة ألف، واشترى أرضية تتمتع بسمعة عقارية شغلت «شارع العدين» منذ كان عبدالرحيم ابن أرملة قليل حيلة. تعويض جيد. غير مشروع، لكنه تعويض. تراجع العزّي عمّا كان قد ذهب إليه بشأن الضحية والجلاد، فالعالم مكتظ بالأذية المجانية والتعويضات المتأخرة. أما عبدالرحيم فعوضته الحياة في الوقت المناسب، حظاً وفرصاً ورزقاً لرجل في أواسط الثلاثينيات. يمكن

لصحفي محترم الاقتراض من زميل قديم يحاول تجنب فضيحة على أعمدة الصحف. إنه مكتظ بالضوضاء والنقود، ولا ضغائن يا عبدالرحيم. اشترى عبدالرحيم قاتاً كثيراً وتفوَّه بحماقات مؤثرة. لم يتردد لوهلة، واغتبط وهو يقدم للعزي مائة ألف ريال، معلناً أنها هدية من صديق. ولو كان العزّي قد مر بتجربة كهذه قبل نزوله من صنعاء، أيام أزمة المثقف الوجودي ونرجسية الكرامة، لاعتبرها إهانة اختارها بنفسه. على أن المبلغ ثمن بخس مقابل الصمت. لطالما أرّقته الكرامة عندما كان موهوباً تترصده أشكال المساندة ومبالغ الدعم المالية في صنعاء. نرجسية تتجلى في البحث عن تبريرات تقيه احتقار الذات، حتى وإن كانت «تخزينة قات» من زميل يراسل صحيفة عربية تدفع بالدولار. كان يقضي الليل في إراقة عرق المجابهة مع احتمالات إراقة ماء الوجه، وأن يظن أن العزّي طفيلي وأقل شأناً منه، ضمن هوية سيئ الحظ الذي يعيش على تقدير الآخرين للموهبة، أي «المثقف الوجودي المأزوم» انتهاءً بالشريد المتعالي، مع ما يترتب على ذلك من استدعاء ومضات روائية على غرار: «متسولون متكبرون». ولطالما بدد راتبه في يوم واحد على رعاية زملاء بلا رواتب، بدافع الهرب من فكرة كونه

واحداً من المتسولين المتكبرين. واللعين في الأمر أنه أثناء شراء القات للزملاء كان يرى فيهم متسولين متكبرين في حالة استنفار قصوى ضد إيماءة استعلاء قد تبدر من العزّي. وخلص العزّي أيامها إلى أن على المرء منافقة من يرزح تحت وطأة الكرامة المنكودة بوساوس الحظ العاثر. عليك أن تبدو أقل شأناً من رجل اشتريت له قاتاً، حتى ينتشي بعدها ويسهر بلا ضغائن. استرجع العزّي ذلك كله أثناء اكتشافه تعافيه من ذلك كله، وعبدالرحيم يعد النقود بلا شأن، أكبر أو أقل. واحد مليء بالرزق السهل الكثير الملوث، نعمة سيئة السمعة مستعدة للبذل من أجل غض الطرف، وربما لا شيء من هذا كله وما هو إلا كرم نفس يتمتع به كاتب معاشات يمني يسمع عن الفساد ولا يخوض معه مطارحات أخلاقية مضنية! على أنه يخوض فيما هو عادي، مثل غيره من المحظوظين الذين لا يشعرون بالخزي، إذ لم يحدث أن جوبه عبدالرحيم بقلة احترام أو ازدراء كونه اشترى أرضية بخمسين مليون ريال بينما لا يتجاوز راتبه العشرين ألفاً. على العكس من ذلك فقد احترمه الجميع، وشعر بكينونته وقدرته على الفعل. تقول القرية: «عبدالرحيم ربي رَزَقه»، يتكئ في صدر المجلس على بطانية لم تفرش لأحد، فلماذا يتأزم

أصلاً؟! ولماذا يتأزم العزّي من سلبية الناس وعدم خوضهم في مسألة الشرف؟! لا ينبغي لمن كان مثقفاً الشعور بخيبة الأمل إزاء ما كان يكتبه ضد الفساد، فالكلمة ملتبسة فعلاً، والصحف لا تصل إلى القرية. «وإذن لمن كنت أكتب؟! وماذا حصدتُ غير ثناء قيادات المعارضة؟!». صحيح أنه لم يمتلئ ببطولة المنشق القروي الذي لا يهادن، لكنه في انتمائه لمعنى جوهري «جزء من حالة رفض أنيقة». استبعد القرض السهل الذي ملأ جيبه والقات الباذخ الذي حمله عبدالرحيم، بنبالة قروي وفكرة نرجسية، ومن أحسن ممن في سوق القات، وانحصر الأمر في: «من المحترم إذن، أنا أم عبدالرحيم؟! أنا الذي كنته ضد الفساد، مواقف سياسية، رؤى، ورثاء لحيوات إنسانية تمتحن بقسوة، أم عبدالرحيم الذي أصبح فاسداً يعتقد نفسه محظوظاً يحظى بالاحترام متخففاً من رثاء ابن الأرملة الذي امتحنت حياته بقسوة؟!».

٨.

لكل شيء في وجدان العزّي معنى ذو نزعة مأساوية، ضمن ورطة بؤس الإمعان، بينما كان عبدالرحيم يحيل على الحظ وتقلبات الأيام. تراجع العزّي عن فكرة أن يبدو مثقفاً سياسياً يهمه صيانة المال العام، تاركاً لعبدالرحيم «خلخة» الجِيب العسكرية على تضاريس المطبات؛ لكأنه ينتقي المطبات والحفر العميقة ليتأكد من كونه غاضباً. شعر العزّي أن صاحبه ينتفض ليتخلص من شعوره بالثقل، من تبعات مسؤولية مناطقية تختبره بلا مسؤولية، فيصب جام غضبه على السيارة ويلتفت نحو العزّي مغتصباً ابتسامة أليمة ترجمها الأخير هكذا: دعني وشأني!

في المنعطف الأول رأى العزّي القرية بعيون شيخ عاد من المدينة بدرجات وظيفية للشباب ورتبة عسكرية لابن أخيه، محميته وفضاء سلطاته اللامحدوده تتماوج شمس نشوة ونساء، «الحياة شربة ماء باردة في المنعطف الأول على مشارف قرية تتأجج حين العصر». عبدالرحيم يردد: «تمام، هكذا أحسن، على مسؤوليتي، هو واعٍ ومثقف يقدرني!». إذن فقد أطلقوا سراح الشوحطة مقابل ضمانة عبدالرحيم بصمت عزّي مثقف محترم. وأسهب عبدالرحيم في الحديث عن شهامة مجموعته

العسكرية وكيف أنهم «عيال ناس، ويقدّرون الرجال» واستعدادهم الدائم لتقديم خدمات خطيرة، كيف أن القرية محرومة من الخدمات، ومسؤولية النفوذ واستخدامه لمصلحة الناس... كان متحمساً للغاية، وكان العزّي يتصبب عرقاً وقد أضمر استباحة كل شيء: النسوان والصُّحَبة والسهر، ظلال الليل ونقود عبدالرحيم وأراضي الوقف... كان يؤكد لنفسه قراراً متحدياً خطيراً: «سأعيشها من الألف إلى الياء، سأعيشها وليذهب إلى الجحيم!»، وكأنه يقول لنفسه: «أيها الكذاب! دعني وشأني!». ترجلا من السيارة بخفة صديقين جمع بينهما الخلاص من مثقف ملتزم. ساعة فقط، وكان الشوحطة يقف مبتسماً على باب المقيل. تعالت الأصوات ترحيباً ولعنات. أسئلة لم يجب الشوحطة على أي منها، إذ كان يبتسم فقط، يبتسم ببلاهة غير مصدق لبلاهة الأمور. وامتلأ العزّي بنفوذ شيخ لطالما ادعى في الماضي كراهيته. شعر أنه شيخ انضم مؤخراً إلى «المؤتمر» ووعدوه بسيارة. أجلس الشوحطة إلى جواره وأغدق عليه من قات عبدالرحيم، هكذا بلا استئذان، إذ لم يعد هناك ما يدفع للاستئذان وهو يمد يده في ما يملك! حتماً طَمِع بالشال الصوف الذي أضفى على عبدالرحيم مهابة لا تنسجم وشخصيته! تحدث العزّي باقتضاب تاركاً للشوحطة

الإسهاب في أكاذيب سجين لم يصدق أنهم تركوه. حدّق في الشال مرة أخرى. شال مهيب لم يتمكن عبدالرحيم من وضعه على كتفه بطريقة ملائمة، أو أن الشال يتوق لكتف آخر، لدرجة أنه يكاد يطير. الشال يحب من يحبه، وبالكاد يحب عبدالرحيم «الطير والنجمة»، وربما بذل جهوداً مضنية للتوحد بالطير والنجمة ضمن وحدة عضوية تفصح في الأخير عن هوية الرجل من خلال ردائه. تردد قليلاً ثم مد يده بملامح من تجاوز للتو مغصاً عابراً، وانتزع الشال من كتف عبدالرحيم، قائلاً: «هذا الشال خلقه الله لأجلي!»، وابتسم الآخر بفرحة من حصل على تأكيد نهائي لعلاقة متكافئة. انتشى العزّي حد اكتشاف حقيقة منغصة؛ لقد خبر رائحة «اليقينات» وتهديد المكاشفة، وأن الصحافة والجينز وجود ملائم تماماً، حتى أن ميلان كونديرا صنف فرار رامبو من مزاج باريس المتقلب الشاعري ذي السمعة الملتبسة، بهشاشة الشاعر إلى حقائق الهمجية البسيطة في أفريقيا، وكيف أنه سيعود من أفريقيا بجلد غامق وأطراف حديدية وعين غضوبة. على أن ذلك كله مجرد «تهريج كتيب». هذا يعني أن محاولات إنجاز همجية فاتنة في ليل شِعبة القات وانتهاك ستر القرية، ثم التفكير جدياً في تحويل ماضي الصحافة الطازج

إلى قوة استحواذ وأراضٍ، وفي الأخير سلب عبدالرحيم شاله من قبيل المران على المشيخة. أهذا كله مجرد تهريج كتيب؟! مات رامبو في لا رومانسية ولا عين غضوبة، مات في «عدن» في بورتريه خطّطه رسام نصف موهوب بدا فيه رامبو بلا إطار، ملامح نقلت باحتيال من صورة الطفل الباكي الشهيرة... بدا رامبو ميتاً للغاية!

تصلبت أطراف العزّي أمام فكرة لا يدري من أين هبطت عليه. لم تهبط دورة دمه في وهدة خيبة الأمل المعتادة. انتشى أكثر وهو رجل حر يعمل تحت الضغط، لكن تهريج كتيب؟! حقارة! يأتي أحدهم من «براغ» ليقلل من شأن الإنسان بلا نزاهة. رامبو هرب إلى احتمالات متعددة، ليس من بينها أطراف حديدية، ولا تهريج كتيب أيضاً. التهريج هو مصارعة روائي تشيكي تراجع اهتمام الفرنسيين به على جثة شاعر فرنسي لم تعد مغامرته تلقى اهتماماً، وذلك في مقيل قات يدرك فيه الجميع أن رجلاً يستعد للتلصص على حرماتهم بلا اهتمام يذكر للسمعة الجيدة. وبدأ العزّي يتصنع الرواية بضراوة. لن تكون رواية عظيمة، ولن يقرأها جونتر جراس. ربما يحبها الاشتراكيون قليلاً أثناء مرورهم بـ«اغتيل جار الله عمر بينما كان الدكتور لكتر يردد: إلين، هل كفت

الحملان عن الثغاء؟!»! لكن يفترض أن هذا جزء من حياة حقيقية لمثقف يفكر بإنجاز رواية؟! حدث هذا في الفندق والدكتور لكتر، بطل فيلم «صمت الحملان» الذي شاهدته أثناء بحثي عن مغامرة العودة إلى القرية، ومن ثم تحويل المذكرات إلى رواية، وإذا ما كان هذا في رواية، فأنا الآن أمضغ القات في منتصف رواية، وعبدالرحيم هذا يمكن استخدامه بلا ضمير؛ إذ لا نذالة في استخدام شخصية روائية. النساء كلهن لي، بلا استئذان ولا عواقب. أذكر أنني كنت أحلم في طفولتي وأدرك أنني أحلم فأغادر بيتنا لفعل كل ما أحلم به بلا وجل. أمسك أي جزء من أي امرأة وأقفز من منارة المسجد بلا ارتطام. يمكن التخلي عن الفكرة الأخيرة لبعض الوقت، إذ لم يعد بوسعي التفكير في فتح النافذة والقفز، أو انتزاع «البوري» من رأس «المداعة»(٣٩) وضربه على رأس هذا الضيف الكريه وهو يحدق بي بغرابة، ثم بشغف خليق برجل غريب الأطوار. حركة يدي، تعليقاتي الفكهة، وحتى هذا المونولوج الداخلي يصغي إليه باهتمام. حتى لو كنت في رواية لا يسعني إهانة ضيف يحدق بي وكأنه يشاهد الحلقة الأخيرة من «دليلة والزيبق»، الذي

---

(٣٩) المداعة: النارجيلة. والبوري: جزؤها الأعلى، الذي توضع عليه الجمر.

قال عنه: «أحسن تمثيلية شاهدها الناس ولا يتمنون مشاهدتها مرةً ثانية». على أن فكرة لعينة جعلت العزّي يفرك يديه بجذل، يمكن التلاعب بمصير هذا الرجل، كإبقائه في القرية لأسباب قد لا تبدو وجيهة، ومن ثم دفعه إلى نهاية حقيرة جزاء عبثه بالخيط الدقيق الفاصل بين الواقع والفن حتى ظنه موّه أحدهما بالآخر. على أنني، وفقاً للضيف، فكرة رائعة لكنها ليست حقيقية، وهذا ليس مطمئناً، ولو من باب قدرته الاستباقية، وهو من الآن يدرك ألا شيء سيبقى من بعد الصفحة الأخيرة، وربما يقول في مقيل آخر: «شخصية رائعة لكن لا أحد يريد مشاهدتها مرةً ثانية»! هذا إن أفلت من يد الفن وهي تقرر المصائر، وقد تعفيه من النهاية الحقيرة تقديراً لروحه الخلاقة!

استيقظ العزّي على لكزة من الشوحطة يستأذن في المغادرة: «عادك مكيف يا أستاذ؟!». لا أثر للضيف، ولم يشأ العزّي السؤال عنه، مدركاً أن هذا كله يحدث، وأنه موجود فعلاً، ولكن هذه المرة موجود بمواهب. انتهى إلى أنه بوسع الرجل فعل أشياء كثيرة يحبها بغير حاجة للقفز من النافذة، أو الشك في نوايا ضيف غادر بعد أن باع أحدهم مرهماً للركبة. بوسع الرجل خوض مغامرات مدهشة، و«التخزين» بروعة قد تروق

بائع مراهم متجول، لا ينبغي إبقاؤه في القرية لمجرد ألا يذهب إلى قرية أخرى يقول في مقيلها إن شخصية العزّي رائعة، فهو بالتأكيد لن يذكر شيئاً عن «لا أحد يريد مشاهدتها مرة ثانية». هذا يقوله بائع متجول في رواية مثل «زوربا»، أما هذا فشاهد «دليلة وزيبق» ولا يبدو عليه أي شغف بالحذاقة. لم يغادر العزّي متكأه، ولم ينظر إلى ساعة الحائط التي سمعها للتو تدق كثيراً، وما عاد مهماً أن تتحرك عقارب الساعة أو لا تتحرك، هي تدق لأناس آخرين، ليس من ضمنهم صاحب البيت، الذي لا يبدو أن علاقة ما تربطه بهذه الساعة الأثيرة التي جلبها معه من الحج ربما، فالرجل لم يقل شيئاً عن الحج ولا عن الساعة، لكنها أتت في حقيبة حاج ضمن ما يعرفه العزّي بـ«هرمية المقتنيات»، وهذه الساعة بقباب ومئذنة، ساعة لم تعد تعني شيئاً لغير ضيف مستريح لم يعد يكترث للوقت.

هكذا هو العزّي في بحثه الدؤوب عن أشياء يتأكد من خلالها من أشياء في داخله، وهو قد أحصى تسع دقات ليتمكن من اللا اكتراث لكونها التاسعة ولا يزال يمضغ القات ولا يعير نصائح مضيفه اهتماماً يذكر. فعل ذلك كله بأقل مجهود، وهذا إنجاز جديد أضافه إلى بقية منجزات

اليوم. وهكذا تمكن من الإصغاء للرجل باهتمام بعد تأكده من الخلاص من إبداء الاهتمام؛ أي رفض ما ينبغي عليه القيام به. بدا الرجل متهوراً وهو يثني على ما أسماه «مدلازة المثقفين»، على أن من حق الإنسان القيام بأشياء لا تلائم شخصيته، كأن يكون صحفياً يسرق القات! ابتسم العزّي محاولاً استراق النظر إلى بنت العاقل وهي تهمس من باب المقيل بأنوثة تسعى للفت الانتباه. رائحة القهوة تؤكد أن عناية بنت في السادسة عشرة قد بذلت فيها. «بُنِية مدلوزة»، حد وصف العاقل، الذي بدا وكأنه يسعى لإظهار مشترك بين ابنته وضيف يسترق النظر. قدم القهوة مردداً: «أزوّجك؟». فوجئ بالعرض، وهذا رجل مشهور بإنجاب الجميلات، وهو ودود، ينبغي مقابلة عرضه بلياقة. كاد العزّي يقبل عرضاً كهذا، غير أنه لم يرَ فيه أكثر من مغامرة بمزايا جنسية غير مشجعة. الفتاة صغيرة، في حين يفضل العزّي نساء الثلاثينيات، ذوات الصدور الباذخة. يصلح قبول عرض كهذا في فيلم مصري كتبه نصف موهوب يحلم بجائزة الدولة التقديرية ولديه موقف اجتماعي نشأ على عاتق ضغائن يسارية التقطها في الجامعة. أما العزّي ففكر بالأمر من قبيل شيء لا يذكره، وكيف سيؤول أمر الدراما الاجتماعية في فصل

كلاسيكي جدير بالتشجيع. سيكون جسداً غضاً، بلا تجارب، لفتاة لا يجدر بالمرء تقدير روحها «المدلوزة» بإفراط. غمغم في دخان المقيل باعتذارات تفتقر للتهذيب، تلافى أضرارها على الرجل بجملةٍ لا يدري العزّي أهي «عاقل ذكي» أم «عاقل خطير». وتساءل قبل بداية سرد فصل المثقف وفتاة السادسة عشرة: أيهما ستروقه أكثر؟ أظنه يفضل «خطير»، لدواعٍ ليست تافهةً تماماً، فالخطورة مطلوبة لرجل ليّن الجانب لا تنظر امرأته لهذا اللين بتقدير يذكر.

لا أحد يدري على وجه الدقة طبيعة ردة فعل العاقل. الأكيد أنه لم يمتقع مما اعتبره رفضاً مهيناً، وربما اكتفى بالتباس الأمر عليه، كأنه رجل مضياف لا يجدر به خلع العمامة في وجه ضيف لا يبدو أن علاقة احترام تربطه بالساعات. لم يشعل سيجارة، وبدأ في سرد الاحتمالات بلغة هادفة علقت في ذهنه من قراءة رواية لعبدالحميد السحار، دون أن يغفل أن عبدالحميد هذا رجل بكوت أبيض «ضليع» في التراث ويعاني التهاب المفاصل. لم ترقه الدعابة التي حاول من خلالها التأكد من كون فكه يوشك على التخلص من تبعات رواية قرأها على سبيل الاهتمام بأمين مكتبة المدرسة الثانوية الذي كان هادفاً للغاية، رجل نصوح لا

يكف عن التحديق بخيبة أمل مَن خُدع بأهل الدنيا كلّ على حدة. ما علاقة سرد فصل محتمل من تمثيلية هادفة بالأستاذ عبدالغفار، الذي لم يخفف رضاه عن عبدالحميد شيئاً من حقده على المكتبة؟!

يقتفي العزّي في الغالب أثر التداعيات، مستحضراً روائح الموتى في فكرة زواج، وأنوف سيئة الطوية، أثناء بحثه عن ولاعة. كان في سبيله لسرد تفاصيل «ماذا لو قبلت عرض العاقل؟!»، وصادف الأستاذ عبدالغفار مقتفياً أثره حتى الركن الشمالي للمكتبة. لم يلتفت الأستاذ عبدالغفار وهو يدفن «نصارى» المكتبة في ثلاثة كراتين اشتراها من ماله الخاص، دفنهم بحماس مؤمن يعمل لفكرة عظيمة. كان العزّي قد تساءل يومها عن مصير الأخ سارتر بنبرة مَن رفع الكلفة، فتساءل الأستاذ عبدالغفار عن سر ولعه بالمنحلّين، مستنكراً كلمة «الأخ» على وجه التحديد: «وبعدين انت حاتحاسبني؟!». بكّر العزّي في اليوم التالي متحمساً لإزالة سوء فهم خطير مع رجل يتحكم بالمكان الوحيد الذي يمنح العزّي شعوراً بالتميز، ويخفف عنه ذلك الشعور بالنقص الذي يعانيه عقب كل حصة رياضيات، ناهيك عن محاولة إزالة سوء الفهم بالبحث عن نجيب محفوظ من قبيل المجاملة؛ لكنه اختفى هو الآخر في

ظروف غامضة! لم يكن العزّي ليكترث، ولم يفهم السبب أيامها، حتى أنه لم يشأ أن يربط بين عبدالغفار وجماعة التكفير، فذلك غير منصف، فالرجل كان قد تحدث عن مسلسل استخلص منه أن الخير ينتصر على الشر. ثم ماذا يريد بإخفاء الثلاثية، حتى أن «ثرثرة فوق النيل» قد اختفت أيضاً ضمن المهمة الأخلاقية التي تطوَّع لها أمين المكتبة لحماية الطلبة من الكتب المضرة، وبدافع تربوي تحول معي إلى ضرر وجودي من الكتب. لم أعد أقرأ كما كنت. أصبحت أدافع عن الأفلام، وأدافع عن فتور علاقتي بالكتب. أذكر أن رواية سبّبت لي ما يشبه حالة انهيار. ذلك لا يدعو للمباهاة الروحية، إذ لم أكن حين قرأت الرواية تلك شفافاً أو ما شابه. كنت في ما يبدو ساذجاً ساعتها، أتقحم علاقة مضنية مع بعض الكتب لأتأكد فقط من كوني تخطيت تلك الذكرى. وربما ليبقى أحدنا مثقفاً، فهو لا يجيد شيئاً آخر في هذه الحياة. لا يوجد سبب يمكن الاعتماد عليه في محاولة فهم لماذا تتحوَّل علاقتنا بالكتب إلى ما يشبه مأساة إغريقية، ولا سبب مفهوماً أيضاً في هذا التعميم، وكأنني أتحدث عن جيل بأسره قرأ رواية «فيرونيكا تقرر الانتحار» لباولو كويلهو، في لحظة سذاجة عابرة، وهو الآن يقتحم علاقة مضنية مع الكتب، حتى أنني

بقيت فترة طويلة أتحاشى اسم «كويلهو» فراراً من إيقاع اللام والهاء والواو تحديداً - فسَّرها أحد النقاد في ما بعد بمقولة «جرس الكلمات». ما أعنيه على وجه الدقة هو أن شيئاً من التوجُّس يتدخل في علاقة دنيانا بالكتب، وهو أيضاً (التوجس) وسيط بين المثقف وضروب المعرفة. وينبغي للمرء ألا يحاول أن يبدو منصفاً في كل صغيرة وكبيرة، ليتحدث ببساطة عن فكرة الألم المرتبطة بالحياة برفقة الكتب وفنتازياتها وتأملات الفن، ناهيك عن هذه المشروعات الروحية والبرمجيات والبحث الدائم عن آليات دفاع لروح المثقف. يبدو أن عليَّ التحدث بلغة «في أوروبا والدول المتقدمة» لأدافع عن حقي في تحويل علاقتي اللعينة بالكتب إلى مأساة جيل، دون أن أخشى فكرة «نصَّب نفسه متحدثاً باسم...»، إذ إنه في أوروبا والدول المتقدمة يمنح الفرد نفسه حق ادعاء فهم ما يخفيه الناس في أعماقهم، ويريد ثمناً جيداً مقابل إفصاحه عن «ما يعتمل»، ولم يعد الأمر في ذلك النوع من البلاهة في وصف رواية بأنها «تغور في أعماق النفس البشرية»، إذ إن الفن كله لا يقوم بشيء آخر عدا ذلك الغَوْر. والمحصلة أن الحياة عندنا على حساب السرد الحاذق لتفاصيل الألم وترتيبه بذكاء، لم تعد فكرة جيدة. إنهم يصدقون مع مرور الوقت،

ويصبح على نفسية المبدع خلق مقاربات مؤلمة وكافية لهوية الشريد المتعالي أو الإنساني الذي يعاني بسبب شخصيته الفذة، إذ لا ينبغي أن يتألم الإنسان بسبب أنه عميق. وفي أكثر من مجادلة دافعتُ عن هذه الفكرة التي تدَّعي كشف أحد أخطر فخ تنصبه الثقافة والإبداع تحديداً في طريق سير حياة أحد هؤلاء الناس. إنه ضرب من الخداع الاستراتيجي أن تتواطأ الحياة لإقناع شخص بكونه متألماً وذكياً معاً، وأن تلك هويته ولكنة وجوده، وينبغي عليه الشعور بالرضا اليقيني أمام ضروب شكه وخلافاته. الشك المخادع الذي يتم تقديمه لك على أنه موقف انطولوجي لا تدري إلا وقد أصبح ريبة في مدى ملاءمة كل ردود أفعالك إزاء كل شيء. وفي الأخير يتعب المرء، ويودُّ لو يترك للمتأنق الذي في أعماقه فرصة أن يتجول بسطحيته، خفيفاً من أعنف مطارحات المعرفة والسيكيولوجيا.

أظن وظيفة الفن واحدة، أو هي أم اللعنات في حياة المبدع الملتبسة، إذ تتحول المأساة إلى زاوية رؤية لفضاءات الحياة، وتقفز التشظيات من لحظة انفعال الفن ومن الصفحة الأولى في الديوان إلى قطعة الشوكولاتا وتشظيها، وتتحول إلى وظيفة. «يمكن تحويل هذه اللحظة مع

الشوكولاتا» إلى سطر في ديوان أو عنوان طموح في مشروع أكبر، إذ تتطلب كل لحظة مجهودها الروحي الخاص بها وحقها في مكانها اللائق بين صدرك وزاوية صحيفة، أو في هذا الفراغ المتثائب بينك وبين صديق تدرك إلى أي مدى هو حاذق في تقدير ومضة «شوكولاتا متشظية هي الأخرى». تدع له أن يبتزك وتدفع على الدوام وتؤكد، ولم يحدث يوماً أن نظرت دونما احترام كامل وصادق لألم الناس وطريقة المبدعين في البوح. غير أن هناك طريقة أخرى حتماً للتعامل وهذا الألم، عدا القبول بمقولات الطفولة السيئة والكبت والمصير الإنساني. ثم إن هذا غير عادل البتة، أن يتجوَّل أحدنا مُشرعاً روحه في الفراغ للإمساك بتلابيب اللحظات الهاربة. يخطر لي ألا أدافع عن كوني مستاءً من الألم الذكي حتى لا أبدو مثل شاعر داهمته التجارة وبوده لو يأتي رفاق الماضي إلى السوق. كل ما هنالك أنني لم أعد أخشى باولو كويلهو، وفيرونيكا قررت الانتحار؛ ليس لأنها ساذجة، ولكن لأنها فيرونيكا. وثمة ما يجعلني متأكداً من أن باولو هو من دفع فيرونيكا لاتخاذ قرار غريب كهذا، وذهب بعدها لتناول العشاء مع سيدة لاتينية لا تراودها أفكار غريبة من أي نوع. أين أضع فكرة أن صموئيل بكييت كان يفاوض على

كل بنس من حقوقه في تأليف «مسرحيات العبث واللا معقول»؟ أهذا شرط حياتنا؛ أن نتجول كمنهوبين لا تزال لديهم أرواحهم؟! إنني أعاني وأفترض وأتحاشى الضعف. لا أريد أن أصدق ذلك المنطق الذي يفتقر إلى الرحمة وهو يقدر أن هذا هو المصير الإنساني. أبحث عن الحماسة وأنا لا أريد أن أتألم بعد. أية عدالة في أن يقنعك سارتر بأنه وأنت في الدور السابع من مبنى، أو تكنس بوابة هذا المبنى؟! وأياً تكن مهنتك، مدير شركة أو طاهية بارعة، فإنه لا يمكنك أن تكون غير الذي كنته طفلاً. إذن، فليتوقف أحدنا عن كل فعل لا ينظر إلى العالم ببراءة ووجل. وكانت آلام سارتر تقفز من طفولته لتغتال قطعة الشوكولاتا إلى فمه، هذا في مذكراته «الكلمات». لكن أظن الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر أشعل وميض الحماسة في أرواح كثيرة في العالم، وتمكنت طريقته في التفكير من تغيير حياة أناس كثيرين، حتى أنه كان متأنقاً وزير نساء يدين فظائع الاحتلال الفرنسي للجزائر ويقود مظاهرات، ووجوديته فرنسية في الأزمنة الحديثة، ولم يكن مضطراً يوماً لتقديم جسده قرباناً في معركته مع التراث. لا أظن وجوديته كانت التباساً بحال، حتى في «الغثيان»، حتى وهو يودع «السيدة ذات القبعة» و«الرجل المتبذل

سترته السوداء»، وأنماطاً بشرية أخرى، يودعهم بلكنة متعالية: وداعاً أيها الكريهون! فهو كان يقوم بذلك وفي أعماقه نبرة روح ظافرة تتصاعد بنشوة. وكان يعرف ألا أحد سيتكاسل عن إبداء الإعجاب إزاء رجل شهير وعميق جداً يودع الكريهين، إذ إن لديه أسباباً عميقة بالتأكيد، وكان يدرك أن فكرة على غرار «ماتت السيدة جارتنا ولم أكن متواجداً أيامها وحين عدت حلمت بمؤخرتها في الليل وكانت تلك تحية لروحها العظيمة» نوع من استباحة وجدان أبناء سيدة متوفاة يعرفون أن العالم المتاخم لحياتهم يعرف من هم على وجه الدقة: جيران ماضي فيلسوف يكتب مذكراته.

وترضخ الحياة آخر الأمر لبهلوانيات الأشخاص المدهشين، وترفع التحية لأرواحهم العظيمة. كل الذي أريده أن سارتر يحضر عندنا مثل كاهن يبارك طقوس العزلة. هو كان محاطاً على الدوام بصداقات ذكية، ولم يكن جحيمه ليتجول معه على أي نحو، وإلا لما وجد الوقت الكافي لتأليف كل تلك الكتب، ولما وجد الشجاعة الكافية أيضاً لدخول قاعة مسرح أوروبا متأبطاً محاضرة في الفلسفة الوجودية «الغثيان»، ويريد

إلقاءها على أنها مسرحية. مسألة خيارات متعددة، وتحويل كل شيء إلى وقود من نوع ما، ومبرر ذكي لاختيار نمط حياة، وليس هدرها.

في مسرحية «ربة المأساة» أراد هنري جيمس أن يبرهن على جدوى الإنجاز، الإنجاز المعروف والمتداول في حياة ينبغي لنا القيام فيها بأشياء ملموسة. ومن أجل الدقة فهو لم يتباهَ إزاء المشروعات الروحية، غير أنه أراد التأكيد على كونها غير كافية، وأن شعوراً جيداً سيأتي من الإنجاز الفعلي، ويمكن ملامسته تماماً أكثر مما قد تتمكن حالات المنفى الاختياري ومجاهدات الامتلاء أو السعي المستميت لإدراك كنه الأشياء. ليس بحثاً عن الرضا، ولكن هذا ما هي عليه الحياة. لا يدعو استحضار هنري جيمس على هذا النحو البسيط لاقتراح أنه كان يستيقظ تمام الثامنة ويسهر على صحة أطفاله، فهو لم يتزوج، واختار ذلك من أجل الحرية، وليس ليتمكن في عزلته الشديدة من الوصول إلى المطلق. وفي أكثر من مسرحية أشار بدون تهافت إلى غرائبية تقديم الحياة قرباناً للفن؛ خسرانات ولحظات فقدان وعدم دراية بما يمكن للإنسان القيام به. وفي تلك المسرحية تحديداً، «ربة المأساة»، يتورط أبطالها، المشتغلون بأنشطة معرفية وثقافية، في ذلك المجال الهائل للتعويل على الروح. ربما

في مسرحية «غنائم بوانتن» قامت فليدا بكل شيء وبغير حماسة روحية، ولم يذكر هنري جيمس عن فليدا ما قد يشير من قريب أو من بعيد لكونها مثقفة أو روحانية بدرجة ما، وبالتالي لم يمنحها ألماً يوازي حاجة مسرحيته للتحذير من الروحانيات. كانت فليدا ذكية كما هو المعروف عن الذكاء في هذه الحياة، حينما يقترح الذكي أشكالاً متعددة للنجاة من الوحدة والحرمان أو إظهار الضغينة لحياة قررت لفليدا شخصية تتصادم وكل ما تتوق إليه. متحفظة للغاية، كأي امرأة مقتضبة ونزيهة تبحث عن الحب. لم تتردد لوهلة في التعلق بنقيضها السيكيولوجي، رجل غير مقتضب وغير متحفظ البتة. كان طويلاً وجذاباً فحسب. لكنها أخفقت على كل حال. وما أصفى ذلك النوع من ألم امرأة أحبت وأخفقت في لحظة عاصفة وأجواء قاتمة! وقد جعلها هنري جيمس امرأة قوية مغلوبة بحق في ضاحية لندن، بينما هي في العاصفة تقول: «أخيراً سوف أعود أدراجي!». هذا النوع من تجارب البشر هو ما يجعل أحدنا يؤمن بالمحاولات، حتى وفليدا تعود أدراجها.

كان الأستاذ عبدالغفار محقاً بدرجة ما. وكانت مهمة الحؤول بين الطلبة وفخاخ الكتب على درجة من الجدوى، إذ قد يحميك أحدهم بدوافع تربوية وأداء ساذج.

٩.

كان الإصلاحي قد استأذن العاقل وبدأ بـ«يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق...». وجذب العزّي صاحبه من دورانه المفضوح وحشره بدل المتكأ. ضغط على يده وغمغم: «لا تعيّن لابن مانع. خليك عادي! مو بك؟! هاتفضحنا!»(٤٠). قلب الشوحطة يكاد يثب على كتف العزّي، والإصلاحي يحيل على العاقل ويحدق في وجه الشوحطة. تصاعدت جلبة من وسط الديوان، وصرخ العاقل: «أصَهْ! خلونا نسمع... هذا بن مانع يا شوحطة يتهمك بحقه القات وانك كان معك ناس يرموا من رأس الشعبة وانته تقطف! هاه خلونا نعيّن الغلط، وبن مانع طرح ثلاثة بنادق عدال، اطرح عدالك يا شوحطة وإن شاء الله ما يقع إلا خير، واحنا

(٤٠) تعيّن: تنظر.

أصحاب بلاد وأسرة واحدة وما نشتيش فوضات... على المدعي البينة وعلى المنكر اليمين. مو حقك البينة يا بن مانع؟». لم يغفل بن مانع أن يهز رأسه أكثر من مرة على سبيل الترحيب بالصحفي، واعتقدها الشوحطة هزة تهديد فسقط عود القات من يده: «أصلاً كلنا داريين بالشوحطة، وما فيش داعي نغالط، وما خليش شعبة بالمنطقة، واشهدوا يا خبرة ويا ذي الوجيه إننا عافي عن الشوحطة وسامح، بس يدي لي البطل اللي كان يرمي من رأس الشعبة، وانا أتفاهم معه واشل حقي من كبده، وانا داري يا شوحطة انك ما تجرا على شعبتي إلا وبعدك بطل، أشتي أعرفه».

تساءل العزّي عن بينة بن مانع ضد هذا المسكين: «ما لك تخوّف المسكين وتتهمه هكذا على الصيت! بينة يا بن مانع والاّ فما معك الا اليمين». مد الشوحطة يده في فراغ المقيل، وبدأ يتهدّج بأغلظ الأيمان وبرؤوس عياله ومستعد يحلف بقبلة الجامع، فيما كان بن مانع يهز رأسه متهكماً، وموزعاً القات بين العاقل والأستاذ. رفض العزّي، متحججاً بأنه لا يخلط القات حتى لا يسهر. كانت محاولة جيدة لتحييد العزّي، وكان رفضه قد وضع حداً لتأثيرات العاقل الأقرب إلى توسلات رجل يتحاشى

غضبة قاطع طريق، عندما كزّ الأخير على أسنانه قائلاً: «لا معي بينة ولا انا راضي بيمين الشوحطة، وإذا انته وكيله يا صحفي نتفاهم».

- أنا وكيل هذا الرجال يا بن مانع، ونتفاهم بالطريقة اللي تعجبك، وبطَّل لهجة التهديد، الدنيا تغيرت!

- هذا قدك غريم!

- أيوة، غريم!

قام بن مانع متجاهلاً حديثاً ولغطاً بائساً من العاقل، وعلا صوته متوعداً: «الوجه من الوجه أبيض». فزمجر العزّي: «كل البنادق يقرحين». ازدحم الناس، فيما قام العاقل متعثراً بوجله وتوسلاته وهو يودع بن مانع ومرافقيه باذلاً محاولة أخيرة بائسة: «خلاص خلّهْ بنادق العدال عندي وما لك إلا ما يطيب نفسك يا بو حسين».

في الليل وزّع العزّي نوبات الحراسة، وتصرف كقائد واثق، يلوك القات ويقوم بإجراءات احتياطية، يلقي الدعابات ويتجول بين نقط الحراسة، من «باب الرعيان» إلا «الباب العدني» وسطح الجامع.

حدثهم عن تاريخ بن مانع باعتباره نموذجاً لحقبة مهينة أصبح عليها التحول إلى فصول من كتاب يجب أن نضع نحن خاتمته اللائقة: «علي بن حمادي شرف وابراهيم أعز من بن مانع، قالك جده قتل واحد وهرب لعندنا، وهو سرق دجاج ولبجوه وجا لك على ناس رعية وقع عليهم فرناج. المهم ما ناش داري يا علي منوه رمي رصاص قبل أمس وانا والشوحطة سامرين عند عابس، والا قلد الله عابس»(٤١). يد الشوحطة أمست كُلاباً فولاذياً حول ذراع العزّي. حاول التخلص منه أكثر مرة: «ما لك أهبل هكذا؟! مو بك خائف؟! والله ما يفعل شي ولا انا داري من كم. خلّهْ يجي الليلة ويشوف احنا رجال وإلا لا!... كلهن رصاص يا عبده! ما لجدتك؟! والله إنه أذل من صافرة. من هي صافرة يا عبده؟!».

- مش وقت يا عزي! والله ان صورة المسألة مدري كيف، والرجال قالك مقطوع راس، ويجمع عيال عمه من كل بقعة، وهاذو ناس لا يعرفوا الله ولا رسوله، والنفس عندهم بريال، منوه قال لامي أصدقك؟!! ما ذلحين نجلس نحرس ونَقْوَزة طول الليل! أصلا انته معك تهجد. أقسم بالله ما تتخاوص الليلة ولا تبصر

(٤١) لبجوه: ضربوه. فرناج: ديك. منوه؟: من هو.

مكلف! اللي يسمعك يقول الرجال يشتي يرقد يبكر يصلي بالناس فجر! سارح تتكشف خلق الله وتبول اينما بال الكلب يا كلب! انتبه من يسمعنا، علي بن حمادي جايئ قديئنا، كما والله لكلمه مو فعلْكْ باخته يا استاد الاساتيد! (٤٢).

كان علي يتساءل عن طبيعة التصويب إذا ما أقدم بن مانع وخبرته على مهاجمة القرية: «كيف يا أستاد نرمي وسط ولا هه، خلفه، جنبه؟!». رد العزّي بلهجة قاطعة: «وسط يا علي، اطرح الرصاصة بين عيونه! وبعدين مش جايئ، صدقني! بس هكذا احتياط، وبطل تلعب بالأمان حق الآلي وانته تكلمني، ابعد الآلي من قبال وجهي، صورتك غشيم!». وانبعثت نغمة شجية من تلفون العزّي: «أذكرك والليالي...»، هتف بجذل: «أهلاً بإله القلق! والله ما نا داري متى أطلع صنعاء، يمكن أتأخر كثير، لو تشوف وين انا، جنب الساجة، بين رفاق الزمن الجميل، ليل ونباح كلاب وسماء ونجوم... بالله عليك تبصر نجوم بصنعاء؟! والله ما لي علم... المقالة؟ نزّلني من العمود الله يرضي على أبوك، معاشتيش عمود

(٤٢) مكلف: امرأة. قديئنا: نحونا.

ولا صفحة أخيرة، انته داري ان الزلط ما تهمنيش... جار الله عمر؟ تمام، اتضامنوا: لن يمروا لن يمروا، ومروا والله ما احنا فاعلين شي... عفواً! صوتك يتقطع، الإرسال مُش واضح، انتهت البطارية...»([٤٣]). دفعهما أمامه في فوضى التساؤلات: «من اتصل بك؟! مو يشتوا؟».

- أشتي هاذه النغمة يا أستاد!

- مش وقت نغمات، ارجع احرس مع ابراهيم وارمه وسط، وانته يا عبده روح ادّى لي الدجلة حق أبوك وباكت كمران، معاباقي معي إلا حبة!

وأشعلها وجلس وحيداً ينفث نزقه ولا مبالاته في وجه بن مانع ويحدق من قلب العتمة.

انتزعه صوت الإصلاحي من توحده الكامن: «وينك يا أستاد؟! لَيْدوّروك من مغرب، عفواً، السلام عليكم»، وقرفص أمام العزّي حتى لامس

([٤٣]) الساجة: الكافورة. الزلط: النقود. معاشتيش: ما عدت أريد.

بلحيته ركبة العزّي المكشوفة للريح. «اجتمعنا مع الإخوة يا أستاد، وهذي فتنة، واحنا أصلاً نحترمك وما نشتيش نحرجك، وانته تحرجنا بهذي الحراسة، والمسألة عاتكبر ويقلبوها حزبية... انته معي يا استاد؟! والقرية كلّه بعدنا، وانته داري ان ما احد يقرب البوابة من غير ما ندري... هي محسوبة على الإصلاح، وانته أيضا محسوب على الإصلاح، ورجل فكر وسياسة أكثر من الدفاع عن الشوحطة وتحدي بن مانع، انته تدافع عن شعب وتتحدى فساد، وخلّهْ بن مانع علينا، الناس ذلحين راقدين، والخطرقة على أبواب البيوت انته داري مش حلا... فيطمع الذي في قلبه مرض، انته داري ان الشوحطة هذا ما يخليش عيناً تنام...!».

- كيف ما يخليش عيناً تنام؟!

- أقول لك يطلع قبل أمس لَجنب الطاقة حق بيت الوجيه يتخاوص!

- قبل أمس سامر معي طول الليل وكيف يطلع الطاقة حق بيت الوجيه؟!

- مو اعجبك بهذا المدلوز؟! اسأل، وانا لا أزكي نفسي، لكن يعلم الله ما أكذب، لا تخله الرجال هذا يجرك لأشياء مش لائقة بك...!

- اسمع يا أبو قتادة! انتو تاخذوا الناس بالظن، ومعاكم ذلحين انتخابات، والشوحطة كبش فداء، أعجبني هكذا، صاحبه وما يجوزش تقلبوا القرية دكتاتورية محمية، ما باقي الا تعلنوا حظر التجوال. يعني تقارير عن أخلاق فلان ومزاج علان، يا اخي الناس أحرار، يعيشوا على طريقتهم وهذي الحرب الضارية اللي تقودوها ضد كل ما هو جميل ومبهج مش رسالة الإسلام... وكأن النبي جاء فقط على شان يفصل بين الجنسين، حجبتوا حتى البنات الصغار، قبل أمس ما عرفكش بنت اختي، عمره ثمان سنين ومحجبة، ولا احنا بقندهار!

- الله! منك صدق يا أستاذ؟! هذا قانت معبّى مننا صدق!

- يا اخي شوف بن مانع، هذا انتهاك لعرض الدائرة، مش عبده... وهذي مش سياسة، هذي قدي هبالة... تستقطب لي واحد مؤذي

سمعته زي الزفت وخرج من المؤتمر لأنه ما حصلش «وكيل محافظ»، هذا يصلح وكيل؟! وراكن... عموماً لما توصلوا السلطة عينوا وكيل الخليفة، عفواً مُش قصدي أسخر، والاّ أقول لك؟! ادوا له حقيبة النفط، ما لها الا بن مانع... أقول لك يا «أخي في الله» القصة ملتبسة ونشتي لنا أجيال تسردها.. انته دافع عن حلمك بدولة الخلافة، فأنت محق مادمت تعتقد بصدق ما تقول. أنا أحترم بكّارتك بدون إيجار سيارة تناضل في سبيل ما تؤمن به، ولأجل حلم، أياً كان هذا الحلم ومسمياته وإمكانيات تحقيقه، فأنا أحترم الفكرة، لكن لم أقركم على هذه القبضة الفولاذية حول القرية، عندكم نزعة تطهيرية وذهنية تحريم تكسر القلب. معاكم انتخابات تمام، اتحالفوا انتو وبن مانع أو حتى مع الشيطان، لم يعد يهمني، لكن أتمنى فعلاً ألا نصطدم، أنا ناوي أطوَّل كثير بالقرية ومستعد لمجابهة العالم لأجل حقي في الحياة على طريقتي وفي فضاء مفتوح مش مخيم... وإذا ما رجّعت بن مانع هذا الأسبوع للمؤتمر ما ناش العزّي.

- انتبه يا أستاد يدري هذا المرجوج مو بيننا! المهم الخيرة فيما اختاره الله، وأنا استأذن! (ثم بصوت عال) هذا الأخ عبده اصلحه الله قد وصل! (وانحنى ليهمس في أذن العزّي) احنا داريين من قبل أمس منوه كان يرمي من رأس الشعبة!

سمع العزّي صوت أمه واضحاً في سكون الليل تنادي من السطح: «يا عزي...». ذرع المَخْلَف وقفز ثلاثة جدران صغيرة لثلاثة حقولٍ كافيةً لثلاثة فلاحين أعمارهم ما بين السادسة والثامنة. هكذا شعر في الطريق إلى أمه الوجلة على السطح، وسمع حفيف ثوب صلاتها ووجيب قلبها يتردد ما بين الجامع والبوابة:

- أماه! أنا هنا.

- اتروح ارقد، أبوك مستحي يدعي لك وما قدرش ينوم، خلاّنا يا ولدي من الفوضات، والله ما دروكْ مو صلّوكْ، مغرب والا عشاء... ادخل ارقد يا الله!

- والله ما بُه حاجة يا امّاه، بس هكذا نضيع الوقت!

ولمح ومضة لمبة جاز دافئة تأتي من آخر الزقاق، من نافذة أمرية:

- انزلي الله يطول بعمرك يا امّاه! وانا هكذا ساعة واتروح، والله ما بُه حاجة! بعدا معادناش جاهل!

انتظر حتى سمع أمه تغلق باب السطح، وهرول صوب الضوء القادم من آخر الزقاق الأليف.

لم يشأ أن يطرق الباب، حتى لا يسمعه أحد. التقط حصاة وقذفها نحو النافذة، فارتطمت بظهر عبده الشوحطة، المعلق بين الضوء والظلمة. ميّزه فوراً؛ شبح رث أليف وملعون. همس متلفتاً: «انزل يا وسخ! انزل قبلما أنزّلك برصاص!». نزل الشوحطة برشاقة خفاش ووقف يتحدث بنبرة مبعوث يسرد تفاصيل مهمته. فتحت النافذة وأطل علي: «هاه! مو بُه؟! هذا انته يا أستاد!».

- ولا حاجة، بس جولة تفقدية. انزل!

كان العزّي متلهفاً لسماع تفاصيل كيف غفرت أمرية ولم تصل كباش «الهَجَر»(٤٤) بعد.

لا يزال حكم رد الاعتبار معلقاً، ولم تفصح القرية بعد عن قناعتها الأخيرة وانتماء سوء فهم الأسنان الذهبية والقبر المدنس. سأل عن التفاصيل وماذا قالت، وأكد لي ماذا قالت. حتى العزّي لم يجد مبرراً لكل هذه الأسئلة، غير أنه كان يبحث عن شيءٍ ما، ويصرخ في وجه علي: «أقول لك ابعد الآلي من قبال وجهي! بطّلْ تلعب بالأمان وانته تكلمني!». ويرتبك علي بين الإجابات المتكررة على أسئلة ملحة وغريبة وبين توتر الاستاد من بندقيته: «ما لك يا استاد؟! ما احد يقتل اخوه». وجفل العزّي أمام هذه الأخوة المبذولة والباحثة عن حمايةٍ في آن. لا يريد هذه الثقة؛ إنها تدمغه بالنذالة، وهو عاشق ويكره النذالة. إنه يقدر علي بصدق ويحب أخته. وعزَّى العزّي نفسه بألا شيء في هذا العالم صائب ومحدد. إنه أكثر من مجرد وسخ يتسلل إلى فراش امرأة ويفرغ فيما بعد لاحتقار أخيها. نفض رأسه بقوة من يتخلص من آخر أعراض الإدمان، وهتف لنفسه: «آخر مرة أتفلسف وأبرر، وأنغص على نفسي

(٤٤) عرف بين القبائل يقدم فيه المعترف بخطئه ترضية، طالبا العفو عنه.

لأبدو نزيهاً أمام نفسي، أحب المكلف واحترم أخوها وليس بوسع الإنسان أن يختار الصواب دائماً، وبعدين مو ادّيكْ عند اختك ذلحين، طلعهْ براسك صلة الأرحام وفلّتّ ابراهيم يحرس البوابة وحده؟! كم رقمك على شان اتصل بك؟! لكن ماعاد معيش وحدات، معك وحدات؟».

تصاعد الليل أبخرة من جسد العزّي المعشوق بطراوة الماء البارد وهو يوقظ فيه ما تبقى من مراهقته الطازجة. مضى زمن بعيد، وكان صباحاً مدهشاً عندما غادر العزّي الحمام بالمنشفة متجاوزاً لغط النساء إلى سطح الجيران، حيث يمكنه الاطلاع عن مصدر إطلاق النار. استعرض يومها سرعة استجابته وإمكانات جسده اللا مبالي. كان مضمخاً بالفتوة، مؤزراً بالمنشفة، يقطر شعره صابوناً وجسارة. لم يكن ليكترث أصلاً، ثم إن صوت الرصاص منحه المفاجأة المتواطئة بين جنسانيته المبللة المفتولة وبين عيون النساء المحروقات، يتلصصن من وراء المبالغات الوجلة على الجسد الخارج من مفاجأة الصابون يقطر ما تبقى من احتمالات ليلة شبقة. لمح طيف ابتسامات وخجلا حقيقيا ومفتعلا، دعوة فردية وتواطؤا جماعيا، واقتربت سيئة السمعة حتى شعر بأنفاسها اللامبالية، وهمست في أذنه: «يا وسخ!». اغتسل للمرة الثالثة مردداً:

«كان زماناً جميلاً! ليت والله بطلقة رصاص لأخرج من دون منشفة!». اعتقال الشوحطة لا يكفي لأن يخرج الواحد على النسوان بغير منشفة، «خلاص، قاهن عجاوز». أطل عليهن من السطح بسؤال محتشم عن مصير صاحبه ولم يسمع شيئاً. تحدثن جميعاً بصوت عالٍ هكذا مرةً واحدة، ضجيج من الماضي، وحتى الجميلات يولدن كي ينتظرن صباحاً يعالجن فيه التجاعيد والشيب. «لا شيء يبقى» إلاَّ الملعونة، لم تيأس بعد، ولا تزال تلوّح بثقة في جسد ذهبت الأيام بفتنته وتركت سوء السمعة كشاهد على مجد قديم. اللعينة لا تزال على جرأتها. إنَها تتغانج وتلعص الكلام. الثانية عادت مؤخراً من الحج، والبقية مصليات أوقفت إحداهن ميراث أبيها كله مقابر. قهقه العزّي شغفاً بتغانج من صباح سيئة السمعة، وحاول مجاراتها على سبيل المرح، ضاحكها عارضاً عليها الزواج تقديراً لروحها المقاتلة وتحيةً أخيرة لماضيها المجيد. أصبح تدوين التفاصيل أولاً بأول على درجة من البيروقراطية، كأداء ينبغي القيام به ابتداء بصفحة جديدة وقلم أسود.

ما يهم هنا هو أن فكرة أساسية التقطها العزّي من دوران النساء حوله ذاك الصباح، وهي فكرة العمر الغنائي، وبدأ يكتب: «إلى من زرعت

صحارى حياتي. هكذا كنت أفتتح كل الرسائل الغرامية التي أكتبها باسمي أو باسم أيّ من زملائي المولعين بهذا المدخل الرومانسي الساحق. وكنت أكتبها صحاري (بالياء).

وصلنا مدرسة الفاروق الإعدادية في إب، ولم يكن فيها سوى بنت واحدة، أحببناها كلنا، وكتبنا لها رسائل كثيرة، كلها تبدأ بـ: إلى من زرعت صحاري حياتي. كنا قرويين جداً نحتاج لهذا النوع من الزمالة الرومانسية. والفتاة لا تقوى على هذا الكم الهائل من الغرام، فتركت المدرسة ولم نسمع عنها شيئاً. كنا منشغلين بحب كل ما يصادفنا ونحن في أبلان، الحي المتاخم للمدينة، والذي كان قرية في الماضي. أحببنا المتزوجات ومريضات مستشفى الثورة والطبيبات من روسيا، اللاتي كان علينا تجاوز سنتين من العته القروي لنتمكن من حبهن، ولكن بصمت. أول علاقة لنا بالروسيات كانت صدمة رؤيتنا الأولى لسيقانهن المكشوفة في شارع العُدَين، تلك الصدمة التي اختصرها قاسم وهو يصرخ: صرماحة، تسمية جلفة للساق، ما بالك بالساق الروسية تتجول بين فندق فيروز، حيث يسكن الفريق الطبي الروسي، وبين مستشفى الثورة، أمام ذهول المارة وتحديقاتهم لسيقان لم تكن كلها ممشوقة تماماً

لكنها متعافية تضجّ بالحياة، مقارنة بالسيقان التي في البيت والتي تكون مقوسة في الغالب.

أسأل الآن عن مآل اللاتي زرعن صحاري حياتي، وأسمع أن واحدة ذهبت للحج، وأخرى أوقفت مقبرة كصدقة جارية، وأخرى أصبحت مسؤولة القطاع النسائي بمنظمة سلفية... بينما كانت إحداهن تلوّح بيدها المعروقة أثناء حديث مع جارتها عن مسلسل "سنوات الضياع"، فيخطر لي الشاعر وليد منير أمين وهو يردد: وحتى الجميلات يولدن كي ينتظرن صباحاً يعالجن فيه التجاعيد والشيب ولا شيء يبقى. كنا نحيا مشاعر العمر الغنائي، جاهزين للصبابة، والنساء مولعات بالشارب الأخضر رفقة جسد الفتى وهو يمتد مفصحاً عن تضاريس جديدة، ونحن الذين كنا بلا تضاريس حتى الرابعة عشرة من العمر، وفجأة تلفت إحداهن عنايتك لما تمتلكه كحامل ترياق الحياة وبهجتها، تلعب الكرة وتتعرق وتتثنى والنساء كلهن لك. وكان سعيد يرجم لكل من تصادفه رسالة. واحدة اشتكت لإخوتها فضربوه حتى بدت نواجذه، فتوقفنا عن كتابة الرسائل حتى يهدأ الجو ويتعافى سعيد، الذي سلم علينا ذات ظهيرة والدموع تملأ عينيه وغادر إلى السعودية. تقاسمنا دفاتره، ومن ثم

عاودنا نشاطنا في التواصل مع من يزرعن صحاري حياتنا. كانت حياتنا قد بدأت تعطب بفعل المذاكرة، وتحول الحب مع مرور الوقت هو الآخر إلى شكل من المذاكرة والقيام بما يلزم. في السينما أحببنا كلنا الممثلة الهندية سرديفي، وكنا نفديها في كل فيلم، ولاسيما عبدالوهاب، الذي كان أكثرنا ضراوة في حبها، لدرجة إعلان أنه يفدي أدق خصوصياتها. مات عبدالوهاب ولم نسمع عن سرديفي بعدها، اختفت هكذا مثل كل تفاصيل عمرنا الغنائي. سمعت مؤخراً عن تصريح لرئيس وزراء الهند وكيف أن بلاده تفخر بممثلة تجسد أنوثة الهند، وكم تمنيت أن تكون تلك الممثلة هي سرديفي؛ عرفاناً بكل الذي فعلته من أجلنا!».

أيام العمر الغنائي وقعت ضحية الرياضيات، التي استحوذت على كامل تواجدي، الذي أصبح مجرد وجود مهدد تماماً. أذكر الرياضيات ولا أصدق إلى الآن أنني نجحت فيها بخمسين درجة، وكأنّ مدى هلعي من نتيجة الرياضيات قد جنبني الكارثة كنوع من ألطاف الله. في البوفيه أقضم سندوتش الفول وأنا وجل من الرياضيات، وعلى مقاعد احتياط فريق الصف وأنا مهموم بعجزي في الرياضيات والجا والجتا وماذا تعنيه الظا والظتا. في السينما وأنا عاجز، لا أدري ما الذي أصنعه مع

الرياضيات! حصص كثيرة وأنا صابر عاجز، لا أشاغب ولا أخطب ود أحد. كنت فقط قلباً يلهج بالنجاة. خطر لي مرة أو مرتين لا أكثر في باب الحمامات تحديداً أن أحوّل «أدبي»، غير أنهم جميعاً كانوا سيغضبون، أبي وأخوتي وأولاد العم وأشياء كثيرة. لا أدري كيف علقت الآمال على فهمي للرياضيات دون أن يكون لي يد في ذلك! لم أشأ أن أكون مستقبلاً لأجل أحد مع وجود الرياضيات، وبدأت أكره ذكائي عندما كنت في الصف السادس، فهو الذي ورّطني في هذه الآمال الأسرية بمستقبل الطالب الذكي. أيامها لم يكن هناك جا وجتا. كانت المسائل أرقاما تجمعها وتصبح ذكياً. أما في الثانوية فالآمال معلقة عليك تقدم مجموعاً يدخلك كلية الشرطة ويصبح للأسرة ضابط يجلس جنب علي عبدالله صالح، أو يقف خلفه على ما أظن. كانت المادة قد حالت بيني وبين نفسي، ودفعتني آخر الأمر لحقد العاجز الذي يكنه الطلبة الفاشلون لأهلهم. ومرة واحدة، فور انتهائي من قراءة رواية عن المصير الإنساني، استلفتها من مكتبة المدرسة، تلك المرة فقط خطر لي ذلك التمرد والاحتجاج على ما يريده لك الآخرون. ومضى شيء في نفسي ما لبث أن تلاشى أثناء أول إجابة خرقاء على سؤال في حساب المثلثات.

في السينما لا أستمتع بالفيلم، ويوم الخميس أفكر في الرياضيات... وتعذر عليّ إيجاد تسوية لمعادلة حياتي الغضة تلك. قرأت كتباً كثيرة وحظيت بعلاقة مختلفة مع مدير المدرسة الذي كنت الوحيد من يطلب إليه أمراً بكتاب. كان عليّ احتمال مؤخرة أمين المكتبة تقديراً للثقافة. كان يتجول بين سارتر وأحمد شوقي بمؤخرة أكبر مما يمكن احتماله، ولطالما دفعني ذلك للتفكير في إصرار المصريين على هذه البدانة، ونصائح الرجل عن الأدب الهادف وكيف أنه يجدر بي فقط قراءة محمد عبدالحليم عبدالله، فهو يقوم بأشياء... لا أذكرها، أظنه قال: «يربي النشء». أثناء ذلك توسلني الأمين إنقاذه من مصيبة عُهدته الناقصة من أحد مجلدي أحمد شوقي، الجزء الأول فيما أظن. المهم أنني اشتريت له الكتاب بمصروف الأسبوع، ولم يشكرني بكلمة.

أفكر الآن في كل هؤلاء الخائفين على أبواب المدارس الثانوية، وأسأل: أكان بوسعي تجنب ذلك كله؟! أيحتاج الطالب لمساندة في شجاعة الاختيار؟! أراقبهم أثناء مروري صدفة أمر بها أمام إحدى المدارس، وأُرجع كل الوجل في عيونهم إلى خوفهم من الرياضيات، حتى مع وجود فرصة الغش، هناك في هذه الحياة تهديدات لا يفوتها حتى الغش.

شخصياً لا أظن أحداً فهم تلك المادة كما يفهم الناس أشياء من نوع الكيمياء، إذ يفنى جزيء أوكسجين وجزيء هيدروجين إلى الماء (H_2O)، وكلا العنصرين موجود في الهواء. هذه المعادلة مفهومة وممكنة، ولدراستها علاقة بالحياة. تدفعك الرياضيات للذكاء في أشياء أخرى في الحياة، وكنت أتباهى على مدرس التاريخ بكون المحاسبي قد سبق المعري ودانتي في رسالة الإسراء والمعراج وفي الكوميديا الإلهية. لا شيء أكثر عنفواناً بالنسبة إلي أيامها من تلك الومضات التاريخية والمقولات الذكية، على غرار «ستلحق بي يوماً ما يا روبسبير». كنتُ أقرأ عن فرنسا القرون الوسطى وأحب المؤامرات وأصوات بوابات القلاع الصدئة في ليالي النهايات المأساوية وضروب المذلات والخيانة. تلك النهايات التي تمنح أحدنا ملاذاً من نوع ما وتجعلك حميماً إزاء عجز البشر في القرون الوسطى وفي حصص الرياضيات.

.١٠

ما الذي حدث بالضبط

انتهى ذلك كله لحساب عزّي جديد «يخزّن» ويبترع ويعرق ويخرج عشاءه من عشاء الذيب. «قالّك أستاد». كان الشوحطة يهز رأسه من قلب العتمة مؤكداً مقولات «الرجَالة»، عيناه تبرقان في الظلام، والجمرة وميض حياة لا يحدها عقب سيجارة. إنه يشفط ويقهقه ويتواطأ، و«أمرية حقك يا صاحبي! الليلة سمرة انته وصاحبتك». إنه عبده، خريطة الحضارات ومفتاح الطبائع. من أين يبدأ؟! «أمرية حقك»؛ لكن كيف يؤكد الإنسان حقه ويتأكد؟! لا شيء أكيداً إلا ما تلمسه. جسدك حقيقتك، هذا ما أنت عليه. صدر مفتوح على احتمالات الكفاءة والسيطرة. لعن الله الأسئلة وحقائق التفكير. «احتضن فحسب، احتضن» أولاً، كن قريباً برائحة، بعيون كما هي عيونك! فعلاً عبده حقيقة بسيطة، عبده بدهي، يضع عينه على كل حافة التلصص، ويرى شبقاً جاحظاً ووعياً باطناً معصوب العينين. إنه يتلصص مدفوعاً بقوة الهتك، عري غير متفق بشأنه، ليس لأحد، لا يهدف لشيء. عري بلا تخطيط ولا انتظار. عري غير متطلب. حمام بسيط لاذع وبلا تكلفة، يعتبره عبده خلواً من الأذية.

اكتشاف الآخر الممنوع في لحظة تجلٍّ خاطفة لا يهددها الإشباع، أجساد الليل تواطؤ مع فحولة ضاجة. لا تزال أمه على السطح: «يا دافع البلا!».

انسل وراء الشوحطة من الطريق الآمن خلف بيتهم وقرفص عند قدميه في هتاف الآخر. «يا أم محمد! الأستاذ سافر عند حامس ويمكن يتأخر». تخلص من الشوحطة ومن تردده، وأيقظ أمرية من نافذتها الوحيدة. لم تسأل حتى. فتحت الباب بلباس نوم، فاشتعل العزّي ولم يسجل قلبه خفقة واحدة، وكأنما كانت في انتظاره. توصد خلف الريح مقابل ليلة أنفاس متلاحقة بلا تأويل. «وين الرماية يا عزي؟». راقه استبعادها للأستاذ، وبدأ يسرد تفاصيل نزقه وجسارته بحماسة مفرطة. «خَلَّينا بن مانع يصيح مثل مطلَّقة جزَّعوها قبل العشاء». علَّقت أمرية كلاشنكوف العزّي، وحين وضع المسدس على المتكأ، لمح الإرادة الشبقية تتوهج في عينيها، وكانت شفتها السفلى تختلج. تتلكأ في تعليق سلاحه واقفة على ساقين ترتعشان أمام وجه المجازف الطازج الذي كان يوماً بطل مغربها الملتبس. «تعالي يا وسخة! طوقها فانهارت عليه مثل شجرة أرهقها الانتظار. كانت محمومة، محمومة تماماً، تهذي وتفيض. تتوسل وتئن

وتعض. والعزّي «طاهش»(٤٥) صغير لذيذ ومؤلم. قوة لينة متصاعدة. كان يخمش، وكانت تفترسه بحركة معلم يخوض وتلميذه الامتحان الأخير. سكنا في نصف ساعة غيبوبة، ثم حشرجت في أذنه: «ارقد عندي للصبح!». غادر بابها دائخاً بين عالمين. يتلمس كينونته على نتوءات أحجار البيوت وهي تلمه وتساند خطاه الحقيقية المتعثرة. أمرية أزقة وأركان بيوت، أبواب صغيرة، وإشارات. أمرية قرية راضية تدثر الفتى في الثلث الأخير. «أماه! افتحي!». لم يسمع شيئاً في وهدة إصغائه لأنين ما بعد معركته الطويلة مع هيئته. أهذا كل ما كنت بحاجة إليه لإنهاء حربي وعراكي وقدمي؟! وكل ذلك القصف والقلب جيد. لقد صمد كثيراً وتخلى، تخلى العزّي للغفران بإحصاء خسائر حرب قذرة إجبارية لحساب الريح. المذكرات لم تحس، والتلفزيون مستريح في عالمه المفصول، وبدا للعزّي أن مذكراته خلدت للنوم واستراحت بعد خروجه من صفحاتها. مذكرات، هي هي، هو هو. لا أحد ينخر في دماغ الآخر.

انفصل العزّي عن مذكراته فيما يشبه مأساة إغريقية تحولت إلى حكاية لن يرويها العزّي لأطفاله الذين سيأتون ذات مساء. غير أنها جديرة

(٤٥) حيوان أسطوري يقال إنه هجين أنثى ذئب وذكر ضبع، أو العكس.

بالتدفق الآمن كطريقة للتخلص من وهم الألم العظيم، على أنها فصول من حياة بطل رواية من ذلك النوع المتداول والمعروف بالشريد المتعالي، والذي مات في طريق الوهم وهو ينزف روحه مداد مذكرات تفتقر فكرة البحث عن منابع الرواية. ضرب من تقليد تجارب مشابهة. ما الذي لم يكتب بعد ويتحول إلى عمل أدبي ينبغي له أن يكون مختلفاً وذا رؤية؟! تأخذ الوصايا شكلاً متكرراً من تقديم الخبرة في السرد ومضامينه، بين فهم للواقع وربما البيئة، وفهم أكثر الطرق السردية خفة وقدرة، على غرار وصايا إيتالو كالفينو في «ست وصايا للألفية القادمة». من غير الملزم أن يدهش أحد تماماً بأساليب كالفينو والأمثلة التي أوردها عن أساليب السرد. فأي شيء قد يدعو إليه مثال من نوع: «عندما غادروا كان الديناصور موجوداً». أنا أترجم من الآن ترجمة سيئة غير دقيقة، فما بين القوسين هو اختصار لإحدى أكثر وصايا كالفينو أهمية، عن واحدة من طرق السرد. ما يهم هو أن عدد الكلمات متقاربة بين العبارتين، وهل يمكن هنا فهم أن هذه الوصية تخص الدقة أم الاقتضاب؟! يلقي أصحاب الأسماء الكبيرة بوصاياهم دون مراعاة إلا لحقهم في تعميم الخبرة الشخصية. يسردونها دون أن يقول أحدهم: أنا

أثق في أن هذا هو المهم والأحرى لكم. في ثنايا ما يكتبون، وفي كل جملة، تأكيد على أن هذا الكلام كالفينو، وأن هذه استخدامات كونديرا النابهة، وأن هذا هو العالم الروائي كما وصلت إليه طريقة عمل ذهن تم قبوله من العالم، وترجمته على أنه ذهن مقتضب خالص، ويميزه تحديد وصايا يعنيها. كيف يمكن إقناع ميلان كونديرا بفكرة اللغة الدارجة في اليمن ومسؤوليتها عن تحديد المضامين، ولم يقل كونديرا أو يشير من قريب أو من بعيد لفكرة اللهجة الدارجة التشيكية وعلاقتها بالمنتج الروائي التشيكي؟! فكرة هذه المادة لا علاقة لها بأن كونديرا لا يدري خصوصيتنا، أو أن هذا تبرم من وصايا من خبروا منابع الرواية. كل ما هنالك أنه ما من وصية من وصايا الكبار تساندك في اكتشاف أن نمط الحياة اليمنية يمكنه أن يكون روائياً بحال. فكرة العودة إلى الجذور والكتابة فيها قد تم تداولها بشكل أصبح من المتعذر معه تكرار التجربة أو محاكاتها. لنجرب مثلاً أن كاتباً يعود من صنعاء إلى قريته ويحاول استعادة نساء الماضي ليبدو أن إحداهن عادت للتو من موسم الحج وأخرى ترحب به بيدين معروقتين وكيف أنه تجول في «مواقع الطفولة» دون أن يجد طريقة للتخلص من كلمة «واقع». ما الذي

سيكون مدهشاً في مثقف يحاول من قريته أن يكون روائياً أثناء حيرته بين أن يشفق على نساء الماضي والأيدي المعروقة أو أن يشفق على نفسه؟! مع التأكيد على أنه كان في تلك الأثناء لا ينفك يفكر في واقعية ماركيز السحرية وتحويل كل الذي تم سرده في القرية إلى سردية طويلة في رواية متضمنة لحكايا الجنيات والفضائح الأخلاقية التي أخذت شكل حكايات عن نساء تحولن إلى أشباح أيام لم يكن الدين قد أصبح على هذا النحو من التدخل. لا نزال في مثال «محاولة إنجاز رواية العودة إلى الجذور» لتجذب مثلاً القبول بأهمية أن هذا العائد يسرد أيضاً رواية كيف أن يكتب رواية، فهل يكفي أن يستمر هذا الأمر برعاية من دهشة أن يتلاعب هذا الروائي المزعوم بمصائر الحاج فلان وأم محمد، ويوزع مقادير الفضيلة وتهديدات المصير وفقاً لحاجته هو للمكافأة والانتقام؟! وعلى افتراض أنه اقترح الأمرين للاسم المتداول في ريف اليمن، اقترح لها أطفالاً بعيون زرقاء وخريف عمه مشمولا بالتكريم، مع إضافة أسباب وجيهة لأن يمتلئ جسد أمرية وتصبح في بداية الخمسينيات ويداها غير معروقتين. يكتشف الروائي المفترس هذا أن كل الذي يقوم به هو انتزاع مشاهد من أفلام ومن روايات، وأن هذا غير كاف

«لتحسين ظروف خريف عمر أمرية»، ليس كافياً لأن يدهش قارئاً مهماً بحجم كونديرا. يبدو العالم الروائي مليئاً أكثر من نمط حياتنا، بأشياء لا تستطيع ذاكرة القارئ اليمني تجاوزها. أين يذهب ذهن أي منا بكل تلك التفاصيل في غرف وممرات الروايات؛ أجهزة البيانو والياقات واللوحات، ناهيك عن السيدات وقبعاتهن؟! وكيف يمكن يمننة ليالي الملذات ومآسي الحروب؟! يمكن اقتراح أن أشكال الحياة البدائية وأكثرها ضرباً في عمق الفعل للإنسان الأقل تقصيراً، كما في أفريقيا مثلاً، قد تحولت إلى روايات صنفت على أنها عالمية. غير أن ذلك النمط من الحياة هو متداول أصلاً، وذهن العالم يفهمه ويمجده أحياناً كثيرة، ويدرك إلى أي مدى هو تلقائي ومنسجم. الأمر هنا بحاجة مشروع مقترح روائي يمني لقارئ أولاً، وبالتالي لذاكرة روائية لم تقرأ شيئاً عن الغرف والأجهزة الموسيقية وفظائع الحروب، ولم تقرأ عن الواقعية السحرية، ولم تتورط مثلاً في دليل من نوع أن نتاج أمريكا اللاتينية سرد حياة أمريكا اللاتينية بدون هذا الكم من الغرف واللوحات والقبعات المتطايرة من روايات أوروبا التي تعرَّف العالم من خلالها على فضيلة الرواية.

أحاول أن أتذكر غرف وبيوت «مائة عام من العزلة». أشعر بالمكان جيداً، ولا أدري، هل كان هناك شيء ما روائي تماماً في الحمام الذي كانت تقف فيه فتاة «مائة عام من العزلة» الشهيرة، التي طارت في سماء القرية فيما بعد، تقف عارية ترتجف بين العناكب وجدران الحمام بشكلها البدائي؟! يصلح هذا المشهد في أي قرية يمنية. حمام مليء بالعناكب والجنسانية. العالم الروائي وأنت تختبره تأتي بالحياة التي تذكرها والحالات كلها، وعلى أن المآلات هي ما يهم آخر الأمة. تعيد ترتيب مراحلك العادية على شكل شخصيات روائية تكمل كل الذي تركته أنت قبل النهاية وفي المنتصف. وهذه واحدة من أهم وصايا كونديرا التي قدمت على أنها ليست وصية. إذ عرف كونديرا شخصياته الروائية على أنهم السيرة الشخصية الكاملة للروائي. قام كل بطل بما كان كونديرا قد توقف في حياته عن القيام به تماماً.

كتابة العالم الروائي هي إعطاء الإنسان طاقته القصوى. لقد مات بعض أصدقائي. وأنا في مرحلة ما اقترحت القيام بذلك الأمر المؤثر. الغياب الكامل الذي أراقبه وأرى فيه أصدقائي يفتقدونني، وكأن الوجود يتحقق كاملاً من خلال ما تقدمه للعالم من نهاية. طه مات وهو عاقل تماماً،

ومات بدون رثاء ولا تمجيد، وكان متواضعاً في موته، بدون أسئلة وجودية ولا التباسات بشأن المصير الإنساني، حتى أنني فكرت في هذا النوع من الرحيل النزيه، وكيف أن طه مات على طريقة لحظة أن فكرت في الموت بدون جلبة. أبطال روايات هم هم الذين نسردهم أثناء حاجاتنا المتقلبة لنهايات ملائمة لكل مرحلة مزاجية. غير أنهم لا يعودون أبطال روايات مطبوعة على ورق، بقدر ما هم طريقة للتخفيف من تطلبنا الوجودي، ومادة سرد شفهي لأصدقاء نعرف إلى أي مدى تؤثر فيهم حكايات رحيل أصدقاء آخرين، وتبدأ اللعبة بالتالي: عقب أي عملية سردية من نوع قصة موت طه، وكيف أنه مات بدون جلبة، تسردها فتحصل على دافع جديد لكتابة رواية. مباشرة يخبرك الصديق الجديد أن طريقة موت صديقك القديم تصلح في رواية. ولطالما كان يتمنى لو أكتب قصصاً، إذ كان يعتبرني أديباً يقول كل الذي بوده لو يقول هو للناس. إن كارثة اللحظات المؤثرة، وهذا النمط من رثاء الحياة التي تنتهي بدون جلبة، وتحويل الأمر إلى نص أو جزء من نص من رواية، لهو أمر بالغ الشفاعة، إذ لم أتمكن من الشعور بطه إلا لحظة حاجتي لنماذج سرد وشاهد على معضلة أخلاقية تدور حول الحق في توظيف ما حدث للناس

القريبين في عمل أدبي، حتى أنني، ولو لم يكن طه قد أوصى يوماً بأن أكتب القصص، لكنت قلت أنه أوصاني بكتابة القصص. لا أدري هذه اللحظة على وجه الدقة، هل حدث ذلك أم لا، وهل هذا «اللا أدري على وجه الدقة» هو العالم الروائي المتاح؟! لقد مات طه حقاً! مات حين وصلت إلى مرحلة عمرية ومهنية بحاجة إلى موتي بدون جلبة، وبحاجة إلى التفكير بصوت عال في كل الذي أخفقت في التواصل معه كما ينبغي. عندما تنذر حياة الناس للتفكير بصوت عالٍ وبِخِسَّة، خِسَّة يتم تفسيرها فيما بعد على نحو روائي قاطع يملك الحق في اقتراح أشياء كثيرة للذي مات، حتى أنه -نظرياً- قد اختلق أكاذيب لشخصية طه تاركاً جثته تتحلل في الأكاذيب، وأقول إنه أكمل ما لم أقم به. يمكن كشف كل الهويات المفترضة في رواية افتراضية. عالمنا اليمني ضيق، والأصدقاء لا يجيدون إخفاء شيء. ومن خلال محاولات سابقة أظنني كنت لأقتل بسبب سرد فظائع كل الذين أعرفهم. باءت كل محاولات التضليل بالفشل. ومع استمرار المحاولة الروائية فقدت انتباهي لأي حاجة إنسانية، عدا حاجة العالم الروائي ونهمه، وإذا بالأسماء تكتب كما هي صريحة، والذي كان في بداية المحاولة الروائية «عزيز» يصبح

«عبدالعزّيز» كما هو مفضوحاً ومحتقراً. لا أحد يدري أو يمكنه الجزم في القرية أنه محتقر. كل ما هنالك أن الرواية وهي تتقصى عوالمه السرية، وتمنح نفسها الحق في ربط أسراره الشخصية بكل الذي قيل عنه دون أن يسحق، جعلت منه محتقراً روائياً بامتياز. وربما يكون ذلك معنى أن أهمية حياتنا لا تكمن في طريقة حياتنا بقدر ما هي في طريقة رواية هذه الحياة لأنفسنا وللآخرين. سمعت هذا من سيدة اسمها صفية في قصة عن امرأة قامت هي الأخرى باختراع ظروف أخرى أقل قسوة لرجل كانت مغرمة به. ما يهم هنا ليس تبيان إلى أي مدى أن محاولة الروائي المزعوم جعل حياة أمرية أقل قسوة، فيما جاءت من اقتباس طريقة صفية، ولكن عن قسوة العالم الروائي ذاته، وهو يحيل طريقة صفية الإنسانية إلى نوع من تمجيد النبل. ولو لم يقم العالم الروائي بكشف نبالة صفية في اقتراح حياة جيدة لحبيبها، لما حدث ذلك أصلاً، إذ كيف يحدث أمر مفيد كهذا ومؤثر إلى هذه الدرجة دون أن يتم سرده فيما بعد، ويصبح بالغاً إلى أمر تداول حياة رجل صفية على ذلك النحو المتفائل، غير وارد البتة؟! فهو قد حدث تكريماً لمستوى السرد وتلبية لحاجة العالم الروائي لهذا النوع من العروض المدهشة التي تدخل في

بعضها وتفسر سلوكيات العمل الكبير (الرواية) في تفاصيل السرد روايات صغيرة داخل الرواية، ناهيك عن هذا النهم في توظيف كل الأشياء ضمن فلسفة رواية الأشياء. أي استحواذ وأنانية أكثر من أن يقوم أحدهم في رواية ما بتبيان أن أهمية الحياة لا تكمن في طريقة العيش وإنما في طريقة رواية أحدنا لحياته لنفسه وللآخرين، على غرار الصعود والهبوط مع موت طه، من التوظيف إلى الاعتراف ببشاعة التوظيف! على أن نغمة ما في محاججات المؤذي الأديب تؤكد بلا هوادة حقه في الاستسلام الكلي لطريقة سير العالم الروائي وحاجته الأقل ثباتاً من حاجة البشر للحياة اللائقة، أكثر من حاجتهم للسرد الحاذق.

هذا الذي قيل كله يدور حول فكرة التكرار، وحول هذا المنغص من أننا في اليمن بحاجة لأعمال روائية. والمحاججة بشأن افتقار نمط حياتنا لشروط العالم الروائي هي استجابة متواضعة للسؤال ذاته. في أي تجمع لمثقفين استحضروا روايات تروقهم، يتم تداول هذا الهم الزائف بشأن غياب الرواية اليمنية، أو انعدامها ربما. مع أن أحداً لا يسهر حقاً بسبب أنه لا يوجد روائي يمني مهم الآن على الأقل، أو أن يقول أحدهم لنفسه: حياتنا ثرية بضروب المآلات والصلاحية السردية الروائية، أو أنه مهتم

حقاً بجدوى معرفة العالم لنمط حياتنا اليومية خارج دراما حياتنا، وأن يعرف العالم ذلك من خلال رواية النزاهة. لا يهم والحصيلة مائة وخمسون صفحة فلوستاب، أي ما يقارب ثلث رواية. كان عليه فقط تغيير اسم أمرية والتلاعب بالأمكنة وشطب العبارات التي تتحدث عن هوسه الجنسي، والباقي جدير بالقراءة في حكاية مثقف اسمه عبدالعزيز، كان يقف إلى جوار جار الله عمر في الصالة المغلقة وعاد إلى قريته ليسرق ليل القات على سبيل المجازفة. أما التي كانت أمرية فيجدر بالرواية منحها خريف عمر لائقا مفعما بعودة الزوج الضال، ومنحها أيضاً طفلين بعيون جميلة ورحلة بيضاء إلى مكة.

لم «يبخل» عليها العزّي بشيء، تحية لروحها الكريمة. في الصباح ندم على تحجيج أمرية، مفكراً أنه ربما جعلها قريبة من الله للدرجة التي تبعدها عن العزّي. لقد بالغت في تكريمها، أو أنني كنت مدفوعاً بالاكتفاء العابر من جسد هو جذر تاريخي الجنسي المدهش ومفتاح شيفرة إرادتي الشبقية، فأرسلته إلى مكة في لحظة كرم بالغ الفداحة. كانت أمرية في الصباح قد عادت وحيدة بلا أطفال ولا عيون زرق، ثم إنه قد مات بالتأكيد وإلا شعر بذلك أثناء تأوّهات أمرية فيما يشبه اليأس المكبوت

والمريح حد الضراوة. ولعلها أيقنت، وهي تخمش العزّي وتهمس: «أرقد عندي للصبح!»، أنه ما من زوج سيعود، وما من ميت بعيد سيرقد عندها إلى الصباح. هذا كله تحليل العزّي للأمر وحيثيات إعدامه لزوج أمرية لتخلص له من دون الناس. لا يدري كيف؛ غير أن لغة جسد أمرية كانت واضحة. جسد واتته الظروف الملائمة لخلاصه من انتظار مأساوي لزوج بقى منه كوت حجازي بثلاث فتحات من الخلف، وصورة أربعة في ستة بملامح آسفة. وإذن، فقد كان العزّي رجلها منذ طفولته الوسخة، منذ وضعت نصفه السفلي ما بين نصفها السفلي والسروال وهي تلقم البقرة في أسفل درج ضيق وفوق روث يابس ورائحته رطبة. غادر أباه ورفاق مغامرته الليلة الماضية ومندوب المجلس المحلي. غادرهم وقفز من سطح خزان الماء الكبير، قبل أن يبدي لعضو المجلس المحلي ملاحظته وانطباعه المهذب تجاه إنجاز لا ينبغي للصحافة تجاهله. كان مدفوعاً بخلاصه من عقدة خذلانات المتع السهلة ومن زوج أمرية ومن كسل إرادته الشبقية التي لم تكن تستيقظ إلا بعد القات. لا يحتاج امرأة وأمرية في هذا العالم. لا يدين بشيء للإصلاحيين. تجاوز الساقية بقلة حياء ضارية، وذرع الأزقة متحدياً فكرة أن إصلاحياً

سيلمحه أثناء دخول بيت أمرية. حيوان أنا! أنا حيوان ليست عليه التزامات سياسية أو أخلاقية! مر من باب بيتهم متجاهلاً مصافحة أخلاقية مضنية مع خالته التي لا تكف عن ابتزاز مشاعره التضامنية في صراعها المرير مع زوجات أبنائها العصاة. تبكي بحماسة وتفاؤل وتنغص صباحات الفرح بغير ما اكتراث للوقت. والعزّي بحاجة لكل دقيقة، ثم إن الإصغاء لخالة لا تكف عن ترديد: «أقول لك وما تقولش لاحد؟»، وتسرد تفاصيل زائفة عن مأساتها الافتراضية، «هو» من قبيل دماثة التواطؤ مع الابتذال. قال ذلك لنفسه في أقل من دقيقة، مضيفاً خلالها طاقة جديدة لتمرده المتجرد الإباحي لما وراء الباب الصغير، حيث أمرية عاريةً تماماً بلا عروق ناتئة ولا دعوات ولا زوج قد يعود. العزّي تحول عضواً كامل الإرادة وكامل الضربات. أغلق الباب خلفه وقفز درجات البيت اللاهث كمن يلاحق غريماً أعزل. أمسك بها عند الدرجة الأخيرة وبدأ يتشممها ويسأل بإلحاح عن اسم قماش ثوبها، مقترحاً: «هذي الزنة يا أمرية شيفون، صح؟! شيفون؟!». كانت تقاومه وتحاول التقاط عينيه بتحديقاته، تبتسم ولا تدري لِمَ هو بحاجة هكذا لمعرفة نوع قماش ثوبها. أخرج سيجارة من جيب بنطلونه الملقى

وأشعلها، فالتقطتها من بين أصابعه وأخذت نفساً عميقاً نفثته في أذنه بتنهيدة خلاص وامتنان، لكأنه يرى هذا الجسد للمرة الأولى. أمعن في انسياب ظهرها بتشفي الرابح. جسد رياضي هائل ومفصل ببذخ، حيث كل شيء كبير وفي وضعية استعراضية. كانت تجوب المطبخ بغيرما التفاتة لسروالها المتدلي على حافة الصعد، كمن يتحاشى النظر إلى قيد تحرر منه بمعجزة. سكبت الماء في حوض اغتسالها المعدني الواسع وبدأت تغتسل وتتشهق، وهو يهددها بآخر جمرةٍ في سيجارته. سحبته إلى الحوض وبدأت تغسله من قدميه وتتحسس أكثر أعضاءه الخصوصية، فاكتشف جسده حقيقة جلية بلا تأويلات. يشعر ببرودة الماء تفصح عن أبخرة ولعه بالمستحمات. كم مرة غسل امرأة في حمام متخيل؟! ربما ألف مرة ومرةً! تخيل هذا الوضع مع هذه المرأة، وفي هذا الحوض، وفي هذا المطبخ! «أحبك يا أمرية ما اشتيش من الدنيا شي. اسكبي الماء، خليني بالطاوة لما اموت. غسليني يا شيخة النسوان». خرج فاتناً يبحث عن شربة ماء وصدامات وفرصةً للتصالح مع التباس كثير في الدين والسياسة، مدركاً ما الذي أراده عندما قال: «الأنوثة تجعلنا أكثر قرباً من السماء». على أن جسارة جنسية ألهبت فؤاده باحتمالات

الاستحواذ والامتلاك. لحظتها كان حامس قد تخلص للتو من جني يسكن رأس امرأة جلبوها من ريف مدينة تعز. لقد وصلت شهرة هذا اللعين الى المحافظات المجاورة. كان يتوضأ بتؤدة وثقة الرجال المباركين من الله، حتى أن مرفقه بدا لحظتها للعزّي أنحف مما يمكن لحامس ادعاء الزهد النحيف. البلل مقابل تطويع الجن، أو الفرار مقابل الجنون! شرط مميت، لكنه يستحق المجازفة. إنه مبدأ قبول التهديد لأجل أمان أن يخدمك الجنّ تخرجهم من رؤوس الجميلات وتوظفهم كمستشارين حاذقين في شأن الاجتماع والسياسة. لا تهرب من الثعبان وإلا حصل لك ما حدث لعبده سعيد غالب! أخذوه إلى مغارة «بلد شار» وقضموا ثلاث سنين من عمره. ذلك أنه هرب فعلموه كيف يختبر المرء شجاعته قبل أن يلعب مع الشيطان. وعندما تتمثل الفروسية وتجابه جحيم «شمس المعارف»(٤٦) ستنتهي إلى مروض عفاريت وطبيبٍ لا يمكن لأحد اتهامه بالشعوذة، كما فعل بن عامر تماماً. لقد رأيت الورقة التي ملأها بالطلاسم تحلق في فضاء الغرفة، وسمعت منها صوتاً مبحوحاً يتحدث الفصحى، وليس في الأمر خدعة. في الغرفة ذاتها شهدت ترحيل جني من رأس فتاةٍ كانت

---

(٤٦) كتاب شعوذة شهير في اليمن.

تنتفض تحت وطأة الصراع بين الإنسان والعفريت، بين العلم المادي والميتافيزيقيا. أما الجميلة الثانية فقد جزم حامس بفراغ رأسها من الجن، وأنها مسكونة بالكآبة. كآبة فتاةٍ بارعة الجمال اختاروا لها زوجاً طوله أقل من متر. هو دميم أيضاً ولا تنقصه القسوة، قسوة من أهينت رجولته على يد ابنة العم. كان اسمها عائشة. سكنت قليلاً بعد أن حصلت على شيء من التضامن الإنساني. عندما يقول رجل محايد: «ابنتكم تعيسة مع زوجها لذلك هي مريضة»، ومن خلال همسات الأهل، بدا أنهم استبدلوا الجني بحسن. كان عليهم البحث عن طريقةٍ محترمةٍ لإخراجه. وعندما خرج قاسم من حياة ذكرى لم يعد ثمة جني دفعها لمغادرة السيارة ورشف القذارة من حفرةٍ على جانب الطريق الموحش. طريق عودتها القسرية إلى بيت الزوج، الذي لا بيت له غير مربع يطلقون عليه مكان قاسم. وقاسم هذا متخلف عقلياً، لكن بدرجةٍ معقولة. كيف يصبح المرء أبلهاً بدرجةٍ معقولة؟! ذكرى لم تجد معقولية البلاهة كافيةٍ للنوم معها على فراشٍ واحد. وذكرى هذه فتاة مليحة أخرجوها من الصف التاسع وأرسلوها إلى قاسم لأجل مائة ألف ريال اشتروا بها بقرة. تحدثت عن جحيم أن يتكوم الإنسان في الركن لأكثر من خمسين ليلة يشعر فيها بأن

عليه النوم إلى جوار إهانة. في خمسين ليلة اكتشفت ذكرى عشقها الدفين للمذاكرة. بقيت هناك تخترع تفاصيل فرح زميلاتها، كيف يغادرن الفصل على إيقاع نكات سلمى بنت علي، كيف يتواعدن على إنجاز بهجة عصر الفتيات، كتاب الإنجليزي، قطع البسكويت... وفي مقيل الصلح أهينت ذكرى، وجردوها حتى من ظلام دموع الليالي الباردة. كان أبو الزوج يسرد قائمة بتفاصيل العصيان المذل. سمعت كل شيء من الغرفة المجاورة. يريقون كبرياءها أمام فتيان القرية، الفتيان الذين كانوا قبل خمسين يوماً يخسرون صداقاتهم على لفتةٍ منها. قالت: «شعرت يومها أنهم يتشفعون بي». قرأت ذكرى عشرات الروايات تنتهي بسعادة، حكايا أميرات القصور المسحورة في انتظار فارس يقتل العفريت ويعود بالأميرة إلى ديارها. وعندما اختطفها قاسم لم تجد فيه حتى مزايا العفريت، فاخترعت لرأسها جنياً متشرداً يبحث عن سكن ويلوذ أحدهما بالآخر.

لا يدري كم مضى عليه في القرية، ولا مستوى تواجده الملموس فيها، غير أن ثمة عطشاً وعرقاً ونشاطاً ذهنياً أقل. لا طريقة لديه للتخلص من تراجع النشاط الذهني والتداعيات، لكنه يريد لهذه الأيام أن تستمر كما

هي عليه، وهاهي أُمّ الأيتام تطلب إليه إعادة أرضية أطفالها المغتصبة في أطراف مدينة إب، مقابل ثلث قيمتها. أرملة عملية للغاية. تعرف أنه يعرف مسؤولين كباراً في صنعاء، ولا تدري أن العزّي كان قد قرر لحظتها إعادة أرضها بقوة السلاح، وليس بالمسؤولين الذين يعرفهم في صنعاء، فهو بحاجة ماسة لضجيج أكثر، ومضطر لخوض الأمر حتى النهاية.

حدث كل شيء بسرعة دفعته للتمادي وهو يطلق النار ذات ظهيرة من الكلاشنكوف ويلحظ عبده المختبئ تماماً ولم يتأكد البتة ما إن كان عبده قد أطلق طلقة واحدة. إبراهيم يطلق من مكان قريب بسخاء شاب ليس مسؤولا عن أحد، يطلق نيران الخزينة دفعة واحدة. صور تتزاحم، والسرعة السرعة. وخطر للعزّي أن الكهرباء العمومية التي دخلت القرية قبل أيام، ومصابيح الإنارة الخارجية، قد حرمت عبده من التلصص، إذ وجد نفسه تحت رعب الضوء. كان رأس عبده مكشوفاً وهو يخبئ بقية جسده ويحتضن الكلاشنكوف، فقفز العزّي ليحميه، وشعر بطعم البارود يملأ خياشيمه. دخلت الرصاصة أسفل بطن العزّي. ابتسم بعظمة من يسير إلى الأقاصي. طلقة رشاش بالتأكيد؛ لكن ليست

قاتلة. لا أحد غيره الآن. حتى مشروع الرواية الملقى في ظرف كاكي أسفل الصخرة التي كان يحتمي بها لم يكن موجوداً. دم يتدفق، وكان ينتظر شيئاً ما، رؤية ما قد تغيره إلى الأبد. حاول وضع تحوله في هذا الوضع على مقاس اختراق رصاصة رشاش لبطنه، وفي منطقة غير قاتلة. وجب عليه التأكد من كونه قد سمع أكثر من مرة عن نجاة شخص تعرض لرصاصة أسفل البطن. أين تراه نسي مشروع الرواية؟! كان ذهنه يعمل، بينما كانت أصابعه تتلمس الدم.